الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
Emir Abdelkader University of Islamic sciences
Constantine

Faculty:		كلية أصول الدين والشريعة	كلية:
Departement:		الكتاب والسنة	قسم:

عنوان المطبوعة

Title of the Dissertation

☑ مطبوعة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة:	☑ السداسي: الثالث
Academic Pedagogical Publication Addressed to: الثالثة	Semester:

Domain:		الحديث الموضوعي	☑ الميدان:
Field or subfield:			☑ الشعبة:
Specialization:		التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه	☑ التخصص:
Submitted by:		نور الدين بن يربح	إعداد الأستاذ(ة):

Submitted by: ---------- اعداد الأستاذ(ة): نور الدين بن يربح

السنة الجامعية (Current Academic Year): 2013/2012م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين والشريعة

قسم الكتاب والسنة.

السنة الثالثة تخصص:التفسير وعلوم القرآن، والحديث وعلومه.

[نظام: ل م د]

السداسي الثالث

مادة:الحديث الموضوعي

إعداد الدكتور: نور الدين بن يربح.

السنة الجامعية: 2013/2012م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في بيان أهمية الدراسة الموضوعية للسنة النبوية وبيان محاور هذه المادة العلمية

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وبعد :

فإن من دلائل عظمة هذا الدين وخلود رسالته ، أن أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، وجعل سنته الشريفة وسيرته الطاهرة منهج حياة المسلمين تعطي الصورة العملية لهذا النبي العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه **...**

ولما كانت الدراسات والعلوم المتعلقة بالسنة النبوية كثيرة ومتعددة ، فكان منها ما يتعلق بمعرفة الضعيف من الصحيح والمقبول من المردود ، ومنها ما يتعلق بمعرفة كيفية سماع الحديث وتحمّله وصفة ضبطه ، ومنها ما يتعلق بمعرفة آداب المحدث وطالب الحديث ، وما يتعلق بمعرفة الرجال وحياة الرواة ، ومنها ما يتعلق بشرح السنة وبيان مدلولها واستنباط الأحكام منها **...** كل ذلك خدمة للسنة الشريفة وبيان لعظم مكانتها.

وتأتي الدراسة الموضوعية للسنة النبوية كواحدة من الدراسات الحديثية التي تسهم في بيان مكانة السنة النبوية ، إذ بهذه الدراسة يتم تسليط الضوء على مواضيع شتى ودراستها دراسة تأصيلية يكون المرجع فيها بالأساس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وما قاله شراح السنة وأهل العلم في ذلك الموضوع ، كل ذلك من خلال جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد ودراستها .

وقد وقع الإختيار على دراسة المواضيع الآتية :

- **الدعوة الى الله في ضوء السنة النبوية** : وكان القصد من دراسة هذا الموضوع إشعار المسلم المعاصر بدوره في هذا العالم الذي يموج بالعقائد والأفكار المخالفة للإسلام وكيف يجب أن يستشعر مسؤوليته في الدعوة الى الله وإقامة الحجة على الآخرين ونشر تعاليم الإسلام بينهم تحقيقا للشهادة المطلوبة شرعا منا (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**)

ولما كان المدعوون أصنافا ومراتب فقد تم تسليط الضوء على منهج الدعوة لبعض هذه الأصناف .

– **سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوية** : وهو موضوع يسلط الضوء على سمو أخلاق رسول الله في تعامله مع غيره من غير المسلمين وكيف كان ذلك صورة مشرقة في حياته ، وهي الصورة التي يحتاجها المسلمون المعاصرون في تعاملهم مع من حولهم .

– **حرمة المسلمين في ضوء السنة النبوية** : وذلك ببيان ضوابط التعامل بين المسلمين وبيان حقوق بعضهم مع بعض حماية لهم من أي منزلق يشين صفاء علاقة المسلمين ووحدتهم ، كل ذلك من خلال جمع الأحاديث الواردة في هذه المواضيع وبيان ما قاله أهل العلم وشراح السنة فيها .

و الله نسأل السداد والتوفيق لكل طالب علم وأن ينفع به أمته ودينه .

أستاذ المادة : د/ نور الدين بن يربح

الدعوة إلى الله في ضوء السنة النبوية

الباب الأول : دعوة عامة الناس

– قال البخاري : حدثنا عبد الله بن مسلمة القعنبي ، حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد رضي الله عنه : سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر : (لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه) ، فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى فغدوا وكلهم يرجوا أن يعطى ، فقال : (أين علي ؟) فقيل يشتكي عينيه فامر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء ، فقال : نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال: (على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم ، فوالله لئن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي ([1])

– قال مسلم : حدثناقتيبة بن سعيد وزهير بن حرب قالا: حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أنزلت هذه الأية (وأنذر عشيرتك الأقربين) الشعراء **214** دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعمّ وخصّ فقال : (يا بني كعب بن لؤي انقذوا أنفسكم من النار ، يابني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئا غيرأن لكم أرحاما سأبلها ببلالها)

التخريج : أخرجه مسلم والترمذي ([2])

قال ربيعة بن عباد الدؤلي : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي المجاز ([3]) يتبع الناس في منازلهم يدعوهم إلى الله عز وجل ، ووراءه رجل أحول تقد وجنتاه وهو يقول: أيها الناس لا يغرنكم هذا من دينكم ودين آبائكم . قلت : من هو ؟ قالوا : هذا أبو لهب.

---

[1] صحيح البخاري – كتاب : المغازي – باب : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبوة و الإسلام (605/7) (4206)

[2] صحيح مسلم – كتاب :فضائل الصحابة – باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (**1872/4**) (**2460**)

– سنن البيهقي – كتاب : السير – باب : دعاء من لم تبلغه الدعوة من المشركين (**106/9**) (**18009**)

[3] * صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب : في قوله تعالى (و أنذر عشيرتك الأقربين)

التخريج : رواه أحمد والحاكم ([4]).

ومما خاطب به الناس في ذي المجاز : (يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا) وكان الناس يزدحمون عليه غير أنهم لا يقولون شيئا وهو لا يسكت بل يكرر دعوتهم وأبو لهب يصيح : إنه صابئ كذاب .

التخريج : رواه أحمد والحاكم ([5]) .

الشرح :

لقد كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير المسلمين هو دعوتهم إلى دين الله وتعريفهم به والسعي إلى كسبهم رصيدا جديدا في صف المسلمين

والأحاديث التي بين أيدينا واضـــحة الدلالة في أن هدف الدعوة إلى الإســـلام هو هداية الناس لا قتالهم والظفر بهم وإكراههم على الإسلام

و تعليقا على حديث علي رضـي الله عنه قال ابن حجر :(ويؤخذ من هذا الحديث أن تالف الكافر حتى يسـلم أولى من المبادرة إلى قتله) ([6])

إذ يعد الإسلام دعوة الناس إلى دين الله تعالى وتعريفهم به فضل لا يعلوه فضل والتسبب في هداية رجل واحد أفضل عند الله تعالى مما حوته الأرض من مال ومتاع .

(**192/1**) (**348**) - سنن الترمذي كتاب التفسير – باب : و من سورة الشعراء (**316/5**) موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام ، و قال الأصمعي : ذو المجاز ماء من أصل كبكب و هو لهذيل و هو خلف عرفة . أنظر : معجم البلدان لياقوت الحموي (**55/5**)

[4] مسند أحمد (**492/3**) ، وروى الحاكم نحوه في مستدركه (**15/1**) و قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و رواته عن آخرهم ثقات .. ووافقه الذهبي

[5] مسند أحمد (**341/4**) و الحاكم في مستدركه (**15/1**)

[6]. فتح الباري (607/7)

قال النووي : (وفي هذا الحديث بيان فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنة الحسنة) ([7])

وقال الشوكاني : (والحديث فيه الترغيب غي التسبب لهداية من كان على ضلالة وأن ذلك خير للإنسان من أجلّ النعم الواصلة إليه في الدنيا) ([8])

ويمنع الإسلام من المبادرة إلى مخاصمة الناس أو العمل على مقاتلتهم ، لأن ذلك خلاف للأصل وقفز وتجاوز لمرحلة واجبة التنفيذ وهي دعوتهم إلى الإسلام وتعريفهم به وإقامة الحجة عليه .

قال السرخسي : (وإذا غزا الجيش أرضا لم تبلغهم الدعوة لا يحل لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الإسلام ليعرفوا أنهم على ماذا يقاتلون ، وهو معنى حديث إبن عباس رضي الله عنهما (ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما قط حتى دعاهم إلى الإسلام) ([9]) ولو قاتلوهم بغير دعوة كانوا آثمين) ([10])

ومما تجب ملاحظته – من خلال هذه الأحاديث أن المطلوب من الداعي هو دعوة الناس إلى الإسلام وليس المطلوب منه أن يهديهم ، قال تعالى :(وما على الرسول إلا البلاغ المبين) سورة النور الآية **54** وقال تعالى : (إن عليك إلا البلاغ) سورة الشورى الآية **48**

فمن أراد دعوة غيره إنما هو محتسب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكرلله تعالى الذي بيده تصريف القلوب ، قال النووي : (ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه ، بل يجب عليه فعله، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول ([11])

فالواجب على المسلم أن يدعو إلى دين الله ويحسن التعريف به سواء حسن المقصود واستجابوا له أم لم يستجيبوا ، لأن الهداية والإستجابة بيد الله وحده ، قال تعالى : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) سورة القصص الآية **56**

مقومات نجاح الدعوة إلى الله :

---

[7] صحيح مسلم بشرح النووي (**15/178-179**)

[8] نيل الأوطار – باب : دعوة الكفار إلى الإسلام قبل مقاتلتهم (55/8)

[9] مسند أحمد (**1/231**) و سنن البيهقي –كتاب : السير – باب دعاء من لم تبلغه الدعوة (**9/107**)

[10] مسند أحمد (231/1) و سنن البيهقي –كتاب : السير – باب دعاء من لم تبلغه الدعوة (107/9)

[11] صحيح مسلم بشرح النووي (23/2)

و من مقومات النجاح في هذه الوظيفة السامية ،و تحقيق المقصود – بإذن الله تعالى – وهو إستجابة المدعوين لدين الله : ضـرورة تزود الداعية المسـلم بالعدة التي تعينه على تحقيق ذلك ، وهي أن يؤدي دعوته لهؤلاء عن فهم دقيق وبايمان عميق مع إتصال بالله تعالى وثيق :

أ – الفهم الدقيق : إذا كان من المجمع عليه أن يكون الداعي على بصـيرة وعلم بما يدعو إليه وبشـرعية ما يقوله ويفعله ويتركه ، فإن **الفهم الدقيق** يعد من العلم العزيز النادر الذي يغفل عنه الكثيرون ، وبدونه لا يعد العالم عالما وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام وملأ رأسه منها ورددها على لسانه ([12])

ويقوم الفهم الدقيق على تدبر معاني النصـوص الشـرعية من قرآن كريم وسـنة صـحيحة وفهم عميق للمصـطلحات الشرعية مثل : الإيمان والكفر والشرك والنفاق والجاهلية..([13])

فهذه مصـطلحات لها أثرها الكبير في تحديد طبيعة الشـخص المدعو من جهة ، وأسـلوب دعوته من جهة أخرى لأن هذه المسألة هي جوهر قضيتنا : **كيف نتعامل مع أصناف الخلق وطبقات المجتمع ؟**

فأصـحاب الدعوة والإصـلاح قد لا يختلفون في تقرير الأحكام الشـرعية المجردة ، ولكنهم يتنازعون في تحديد أسـلوب التعامل مع أصناف البشر ، وهذا هو محل النزاع الذي يحتاج إلى تحرير وتحقيق وفهم دقيق بوعي وبصيرة راشدة .

وقد أدرك العلماء القدامى – رحمهم الله تعالى – خطر غياب الفهم عن المسلم في تعامله مع النصوص الشرعية أو في تعامله مع غيره من الناس بناء على هذه النصوص .

يقول الإمام الشاطبي – وهو يتحدث عن صفات العالم – : (... أن يحصل له فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب ، ومعرفة إصـطلاحات أهله ما يتم له به النظر في الكتب ، وذلك يحصـل بالطريق الأول من مشـافهة العلماء ، وأما ماهو راجع إليه وهو معنى قول من قال : كان العلم في صـدور الرجال ثم إنتقل إلى الكتب ومفاتحه بأيدي الرجال . والكتب وحدها لا تفيد الطالب منها شيئا دون فتح العلماء وهو مشاهد معتاد) ([14])

---

[12] المبسوط (31/9)

[13] صحيح مسلم بشرح النووي (23/2)

[14] الموافقات (97/1)

(**1**) و هو ما يعبر عنه المعاصرون بفقه الأوراق : و هو فهم أوراق الكتب و ما تحويه من المعاني المجردة بعيدا عن الأحوال والملابسات و المؤثرات المحيطة بذلك المعنى ، و من أهم أسباب هذه الظاهرة السلبية : عدم التلمذة على العلماء الربانيين الذين يحسـنون التربية و التوجيه و يعطون لطلابهم المعرفة مقعدة منضـبطة مقدرة بمقدار دقيق ، و مايتخرج الطالب من بين أيديهم إلا و قد وعى العلم مؤصـلا مؤسـسـا متكاملا متوازنا ... على عكس من إنطلق مسرعا يقرأ كتيبات أو يحضر محاضرات أو يسمع تسجيلات ، فيأخذ منها ما

فالإمام الشـاطبي – رحمه الله تعالى – يقرر حقيقة كبرى وهي أن أخذ العلم من بطون الكتب ثم التوجه به نحو الناس لتعليمهم ودعوتهم به دون الرجوع إلى العلماء فيه خطر كبير ([15])

و يؤيده في هذا العلامة إبن القيم – رحمه الله – الذي يكشف عن خطر سوء الفهم على الداعي والمدعو على السواء بقوله : (ينبغي أن يُفهم عن الرسـول صـلى الله عليه وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمل ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان ، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام ، بل هو أصل كل خطأ في الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد ، فيتفق سوء الفهم في بعض الأشياء من المتبوع وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله !!!) ([16])

ومما يلزم الداعية المسلم معرفته – إضافة إلى فهمه للنصوص الشرعية – أن يفهم الواقع الذي يتحرك فيه ، إذ عليه أن يكون عارفا بالحياة الواقعية دارسا لمشاكلها وأسبابها ، محيطا بما جد فبها من مذاهب وعقائد حتى يتسنى له أن يؤثر بدينه في غيره ، بدعوة هادية هادفة تراعي إطار الزمان والمكام وحركة الحياة والتاريخ ، فيكون قادرا على إقناع الإنسـان المعاصـر بكل تعقيداته العقلية والثقافية ، والأخذ بيده نحو الهداية والفلاح من خلال إدراك الكليات الإسلامية ، وتمييز الثوابت عن المتغيرات وإدراك المقاصد وتحديد الغايات ([17])

ب– الإيمان العميق : وهو تيقن الداعي بأحقية الإسـلام ، بإيمان عميق ثابت لا يتزعزع ، وأن لا يسـتوحش طريق الدعوة الذي سلكه لقلة المستجيبين ([18]) ، قال تعالى : (**لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**) **سورة آل عمران الآية 186** .

فإن من سـنة الله في عباده المؤمنين الداعين إليه المجاهدين في سـبيله أن يبتلوا بأنواع البلاء .. ومن البلاء الذي يبتلون به على وجه الإمتحان وحسب مقتضيات سنة الله تعالى في الداعين إليه ما يسمعونه من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم من الكفرة من أنواع

تسـارع إلى فهمه و ينقله إلى الآ خرين بغير وعي كامل مغفلا الظروف و الخلفيات و البواعث لما قرأ أو سمع ، فينتج عن ذلك فهم ضـحل مبتور عن كثير من الحقائق و المعارف و المفاهيم .

أنظر : الفقه الحركي في العمل الإسلامي المعاصر – دراسة تأصيلية نقدية – لموسى إبراهيم الشيخ (12-15) – بتصرف

[15] انظر : أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان (237)

الصحوة الإسلامية بين الإختلاف المشروع و التفرق المذموم للدكتور يوسف القرضاوي (77)

[16] كتاب الروح – المسألة السابعة (99)

[17] دكتور طه جابر العلواني : مقدمة كتاب : كيف نتعامل مع السنة للدكتور القرضاوي – بتصرف

[18] قال ابن حزم : (لا تسوحش مع الحق ، فمن كان معه الحق فالخالق تعالى معه ، و لا تبال بكثرة خصومك و لا بقدم أزمانهم و لا بتعظم الناس إياهم و لا بعدتهم فالحق أكثر منهم) – إبن حزم و منهجه في دراسة الأديان لمحمد علي حماية (209)

الأذى القولي كالطعن في الإسلام وفي الدعاة إليه وبإلصاق التهم الباطلة بهم لصد الناس عنهم وعن دعوتهم وإن من عزائم الأمور الصبر على هذا الأذى والإلتزام بالتقوى ([19])

وهذا الإيمان ضروري لمن أراد دعوة غيره ، لأن وجود الشك والإهتزاز وقلة العلم عند الداعية المسلم يعد ثغرة يؤتى منها قد تكون سببا في تنفير غير المسلمين من الإسلام بدلا من كسبهم وتحبيبهم إليه، لأن المترددين والمتشككين لا يمكنهم أن يتملكوا جرأة ولا حجة يقنعوا بها خصومهم وإن رأيتهم يتنمقون بالتعابير المنتقاة ويتفاصحون بالكلمات العذاب ([20])

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعلى درجة من درجات اليقين بصحة طريقه وسلامة منهجه ، وقد عبر عن ذلك يوم تخلت الدنيا كلها عن دعوته بقوله : (والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه) ([21])

ج– الإتصال الوثيق: والمقصود به تعلق الداعي المسلم بربه وتوكله عليه في جميع أموره لاعتقاده الجازم بأن الله وحده هو النافع والضار والمعطي والمانع .

قال ابن قدامة المقدسي : (بان يعلم بأن الله تعالى هو المسخّر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأنه لا رزاق سواه ، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة ، وإن وصل إلى المراد لم يخل من المنة والمهانة ، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد) ([22])

فتزداد ثقة الداعي المسلم بربه ويقوى يقينه في نصره، قال الله تعالى:(**إنّا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**) سورة غافر الآية **51**

أي : ننصرهم في الدنيا والآخرة بان يغلبوا أعداءهم في الدنيا بالقتال وبالحجة وإن غلبوا في بعض الأحيان إمتحانا لهم من الله تعالى ، ولكن العاقبة دائما لهم ([23])

---

19 السنن الإلهية في الأمم و الجماعات و الأفراد – د /عبد الكريم زيدان (87)

20 أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية – د/ نور الدين بن يربح (28)

21 سيرة ابن هشام (330/1) : صرح ابن اسحاق بالسماع وسنده منقطع ، و به يكون الحديث ضعيفا.

22 مختصر منهاج القاصدي (284-285).

23 أنظر : الكشاف (172/4) و تفسير القرطبي (322/15).

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن نجاحه في دعوته مرهون بإخلاصه وصدق نيته وتجرده للحق ، حتى تكون الغاية من دعوته رضا الخالق لا ثناء الخلق وسعادة الآخرة لا منفعة الدنيا ، فيحذر من أن تتحول دعوته إلى بحث عن الجاه والشهرة والمصلحة أو نصرة لنزعة عصبية ظاهرة أو خفية .. وكل ذلك يحتاج إلى مجاهدة للنفس.

عن علي بن سالم قال : سمعت سهل بن عبد الله وقد قيل له : (أي شيء أشد على النفس؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب) ([24])

فكلما تجردت الموايا وخلصت الأعمال لله تعالى كانت العواقب أسلم والنتائج أحسن في العاجل والآجل .

يقول إبن حزم رحمه الله : (إذا تعقبت الأمور كلها فسدت عليك وانتهيت في آخر فكرتك باضمحلال جميع أحوال الدنيا الى أن الحقيقة إنما هي العمل للآخرة فقط ، لأن كل أمر ظفرت به فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه ، ولا بد من أحد هذين الشيئين ، إلا العمل لله عزّوجل فعقباه على كل حال سرور في عاجل أو آجل ، أما العاجل فقلة الهمّ بما يهتم به الناس ، وإنك به معظّم من الصديق والعدو ، وأما في الآجل فالجنّة) ([25])

إن السنة النبوية ترشد الى أن الداعية الحق هو الذي لا يقرن دعوته وسائر عباداته بشيء سوى إرضاء خالقه ، حتى لا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

قال العز بن عبد السلام : (فمن اقترن بعبادته شيء من ذلك، أي من الأغراض الدنيوية أبطلها لأنه جعل عبادة الله وطاعته وسيلة الى نيل أغراض خسيسة دنية ، فاستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير فهذا هو الرياء الخالص) ([26])

ومما دلت عليه الأحاديث التي بين أيدينا هو توجيه الدعوة والتعريف بالإسلام الى **العامّة** من الناس إذ أن الدعوة لا بد أن تمس كل الفئات والطبقات ، **لكن ما المقصود بالعامة ولماذا توجيه الدعوة إليهم ؟**

المراد بالعامّة : إن في كل مجتمع يوجد من يملك النفوذ والسلطان وبيده مراكز التاثير في المجتمع كما يوجد **عوامّ** و**بسطاء** يمثلون عادة الفئة الغالبة ، أو ما يعرفون بجمهور الناس .

---

[24] صفة الصفوة لجمال الدين أبي الفرج الجوزي (46/4).

[25] الأخلاق و السير في مداواة النفوس (**13**) .

[26] قواعد الأحكام في مصالح الأنام (147/1)

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان : (نريد من قولنا جمهور الناس : معظمهم ، لأن جمهور كل شـــيء معظمه وأكثره والمقصـــود بمعظم الناس : ماعدا (الملأ) وهم عادة قلة ، أما ماعداهم فهم أكثرية الناس في أي مجتمع بشـــري وهؤلاء الجمهور يكونون عادة مرؤوسين للملأ وتابعين لهم ، كما يكونون غالبا فقراء وضعفاء) ([27])

– ما الحكمة من توجيه الدعوة الى عامة الناس من خلال حديث مسلم ؟

إن اعتماد أســلوب الدعوة تجاه العامة من الناس إنما هو في الحقيقة التحرك الخيّر لأهل الحق في أكبر وأوســع وســط بشري عند المدعوين ، فقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يكون العامّة هم أكثر أتباع الأنبياء ، قال الله تعالى – مخبرا عن قوم نوح عليه السلام – : (**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**) سورة هود الآية **27** .

قال ابن كثير : (ثم الواقع غالبا أن يتبع الحق ضعفاء الناس) ([28])

فحين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى أولائك البسطاء والفقراء الذين يرزحون تحت ضغط الكبراء ، إنما عمل كل جهده لإنتشالهم من بينهم وسحبهم الى صف المسلمين أين يجدون الرعاية لإنسانيتهم والإعتبار لكرامتهم بشـريعة تعتبر كل إنســان على ظهر البسـيطة أهلا لتقبل الحقوق والإلتزام بالواجبات كأي إنســان آخر ، وأن الأصـل والجنس واللون لا يمكن أن يفرق بين إنســـان وآخر أمام القانون الإلهي :(**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**) سورة الحجرات الأية **13**

ومن المسلنات التي لا تحتاج الى تأكيد أن هذا الدين إنما جاء للناس كلهم :(**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**) سورة سبأ الآية **28** ، فكان مبعث رسول الله لكل البشر على إختلاف ألوانهم ومراتبهم ، عرب وعجم ، بيض وسود ، أغنياء وفقراء ، حكام ومحكومين .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : أطرد هؤلاء لا يجترؤن علينا ! قال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ،

---

[27] أصول الدعوة (390)

[28] تفسير ابن كثير (234/3).

فوقع في نفس رسـول الله ما شـاء الله أن يقع فحدث نفسـه فأنزل اله عز وجل : (**ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه**) ([29])

فقد رفض رسـول الله تقريب الكبراء والسـادة على حسـاب الفقراء والمسـتضـعفين ، لأن الدعوة التي جاء بها دعوة بناء وإعمار للكون والحياة لا تصلح بالسادة وحدهم ولا بالأغنياء وحدهم ، وصناعة الحياة المتكاملة تحتاج الى جهود الجميع ، وأن المجتمع المسلم هو الذي يشكل نموذجا صادقا لتعاون جميع أفراده حيث يعرف كل إنسان فيه مكانه ويؤدي دوره .

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن تغيير مجتمعات الكفر من حال الخصومة للإسلام وأهله الى حال الإعتراف به والإيمان بشـريعته لن يتم – في الغالب – إلا بالتغيير القاعدي وذلك بحسـن عرض الإسـلام على بسـطائه وعامته وتعريفهم بمبادئ الإسـلام التي تحمي كرامتهم وتصـون حقوقهم ، وأن يحسـن توظيف قابلية هؤلاء **العامّة** لدعوة الإسـلام وذلك لخلوهم من موانع القبول كحب الرّياسة والتسلط والكبر وهو ما لايوجد عند الكبراء عادة ([30])

إن النجاح في دعوة هؤلاء **العامّة** إنما يعني تحويل طاقات وقدرات بشرية نحو البناء الرسـالي في رحاب الإسـلام ، حيث يجدون الشـــرائع والأحكام التي تفجر طاقاتهم نحو الخير والإعمار ، وقد كانت ثمرة دعوة رســـول الله لعامة قومه أن جعل منهم السّادة والقادة والعلماء والخلفاء .

ولم يكن منهج رسول الله في الدعوة لهؤلاء العامة يقوم على فكرة تجميع البشر وتكثير المنتسبين فحسب ، بل إنه منهج يقوم على مبدأ حسـن توظيف الطاقات البشـرية في ما هو صـالح ونافع ،و قد أخذ ذلك من رسـول الله الكثير من التدبير والتخطيط والعمل الدؤوب ([31])

وقد قدم الإمام الشـاطبي – رحمه الله تعالى – تصـورا إسـلاميا بديعا حول أسـاليب إختيار الكفاءات وحسـن توظيفها خدمة للدين والأمة ، فبقول –رحمه الله – :

(إن الله عزّ وجل خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصـالحهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ألا ترى الى قوله تعالى : (**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا**) **سورة النحل الآية 78** ،ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدرّج والتربية ، تارة

---

[29] صحيح مسلم –كتاب : فضائل الصحابة – باب : فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه (1878/4) (2413) –و الآية من سورة الأنعام برقم 52 .

[30] – أنظر: أصول الدعوة (**391**)

[31] أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية / د : نور الدين بن يربح (35)

بالإلهام كما يلهم الطفل التقام الثدي ومصه ، وتارة بالتعليم فطلب الناس بالتعلم والتعليم لجميع ما يُستجلب به المصالح وكافة ما تُدرأ به المفاسد .

وفي أثناء العناية بذلك يقوى في كل واحد من الخلق ما فطر عليه وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال، فلا يأتي زمان التعقل إلا وقد نجم على ظاهره ما فطر عليه في أوليته ، فترى واحدا قد تهيأ لطلب العلم وآخر لطلب الرياسة وآخر للتصنع لبعض المهن المحتاج إليها وآخر للصراع والنطاح الى سائرالأمور، ويتعين على الناظرين فيهم الإلتفات الى تلك الجهات فيراعونهم بحسبها ويراعونها أن تخرج في أيديهم على الصرا ط المستقيم ، فعند ذلك يحصل الإنتفاع وتظهر نتيجة تلك التربية)([32])

وهو الهدف الذي إعتمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب الدعوة تجاه العامّة والبسطاء حين عمل على إخراجهم من محيط الكفر والشرك أولا ، ثم إعدادهم إعدادا إسلاميا يمكنهم من تحمل الآمانة وأداء الرسالة ، فكم من إنسان بسيط كان في مجتمع الكفر نكرة لا يؤبه به أضحى في الإسلام علما يقتدى به ؟

– ما الذي يستنبط من خلال حديث ربيعة بن عباد الدؤلي ؟ ([33])

لقد روى ربيعة بن عباد الدؤلي كيف كان رسول الله يتبع الناس في منازلهم يدعوهم الى الله عزّ وجل وكيف كان أبو لهب يصد عنه الناس ، فما الذي نفهمه من هذا الموقف؟

و الجواب عن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوجه بالدعوة الى أولئك العوام إنما كان يعلم أشد العلم أن رؤوس الكفر تسعى بشتى الوسائل الى تحويلهم نحو خطها وعقيدتها حتى تجعل منهم مادة تخاصم الإسلام والمسلمين ، لذلك حرص رسول الله كل الحرص على الصلاة فب المسجد الحرام وإظهار شعائر الإسلام، وهنا حاول المشركون تفويت هذه الأغراض بالمضايقة والإيذاء ([34])

فرواية ربيعة بن عباد الدؤلي —و غيرها في السنة النبوية كثير — تؤكد اعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب " الإتصال بالجماهير " مثلما نسميه بلغة العصر ، كان رد الفعل لدى خصومه أن قاموا بعملية " التشويش " على دعوته بشتى السبل، وفي سبيل جذب العوام إليهم عمدوا الى التكذيب والمجادلة بالباطل وحملات التيئيس والتشكيك وكل ما من

---

[32] الموافقات للإمام الشاطبي (1/179-180)

[33] هو ربيعة بن عباد الدؤلي بن كنانة ، مدني روى عن ابن المنكدر و أبي الزناد و غيرهم ، يعد في أهل المدينة و عمر عمرا طويلا 0 أنظر : الإصابة (1/509).

[34] السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري (1/150) – بتصرف

شأنه أن يحول دون وصول صوت القرآن الى أسماع المستضعفين ، وقد تحدث القرآن الكريم عن محاولاتهم تلك ، قال تعالى :(**و قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**) سورة فصلت الآية **26**

إن الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل حول استقطاب عامة الناس وبسطائهم هو ما يمكن تسميته بلغة العصر بكسب " **الرأي العام**" ([35]) والمنتصر فيه هو من يحسن انتقاء الأساليب ويتقن ادارة الصراع حتى يحوّل هذا الرأي العام الى خطه وعقيدته .

وها هم خصوم الإسلام المعاصرون يتحركون اليوم بكل قوة ونشاط لنشر دعواتهم وعقائدهم ضمن دائرة "عامة المسلمين" وفقرائهم وبسطائهم مستخدمين في سبيل ذلك كل الآليات والوسائل والإمكانات.

فقد استغلوا المجاعات والفقر والمرض والجهل لينشروا دينهم بين المسلمين ، وإذا رصد خصوم الإسلام الأموال وسخروا الإعلام ليقتلعوا المسلمين من جذورهم ، فلماذا لا يرصد المسلمون أضعافها ويسخّروا من وسائلهم أقواهالحماية أنفسهم والحفاظ على وجودهم.

فالطريق الذي رسمه الإسلام في الدعوة الى الله هو طريق هداية الخلق واقامة منار العدل وذلك من أجلّ العبادات الى الله فقد قال صلى الله عليه وسلم : (من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا) ([36])

إن المنهج الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة كان منهجا جادا محدد الأهداف مدروس الوسائل بعيدا عن العفوية والإرتجال ، فكانت الثمرة بناء مجتمع فاضل قوي مترابط ، والى مثل تلك الدعوة يحتاج المسلمون المعاصرون عسى أن يحققوا في أمتهم بعثا جديدا .

---

35 برز مصطلح "**الرأي العام** " مع بروز التجمعات السكنية أو ما يمكن تسميته بالجماهير الغفيرة و قد قسمه البعض الى :

أ- الرأي العام المستنير : و هو رأي الطبقة المثقفة

ب- الرأي العام المسيطر : و هو رأي القادة و الزعماء و الحكومات

ت- الرأي العام المنقاد : و هو رأي السواد الأعظم الذي لا يستطيع المتابعة و البحث

أنظر : المسؤولية الإعلامية في الإسلام للدكتور محمد سيد محمد (165-166)

36 صحيح مسلم – كتاب : العلم – باب : من سن سنة حسنة (2060/4) (2674)

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله :(إن الدعوة الى الله تعالى ليست صيحة مبهمة أو صرخة غامضة ، إنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج اليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين)

– قال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا الليث ، قال حدثني سعيد بن أبي سعيد أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه قال : بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال ، فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج اليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ما عندك يا ثمامة ؟) فقال : عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت ، فتُرك حتى كان الغد ثم قال له : (ماعندك يا ثمامة ؟) قال: ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر ، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: (ما عندك يا ثمامة ؟) فقال: عندي ما قلت لك ، فقال : (أطلقوا ثمامة) ، فانطلق الى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي ، ووالله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلي ، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلي وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكّة قال له قائل : صبوت ؟ قال : لا ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي . ([37])

– قال البخاري : حدثني ابراهيم بن موسى عن هشام عن معمر ح وحدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري قال أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال حدثني ابن عباس قال حدثني أبو سفيان من فيه الى في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل عظيم الروم :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله الى **هرقل عظيم الروم** سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، وأسلم يُؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و(**قل يا أهل الكتاب**

---

37 – صحيح البخاري – كتاب: المغازي – باب – وفد بني حنيفة و حديث ثمامة بن أثال (**109/8**) (**4372**) .

– صحيح مسلم – كتاب : الجهاد و السير – باب : ربط الأسير و حبسه و جواز المن عليه (**1386/3**) (**1764**) .

– سنن البيهقي – كتاب : السير – باب : ما يفعله بالرجال البالغين منهم (**65/9**) .

تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) .

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم ([38])

– قال البخاري : حدثنا مسلم بن ابراهيم ، حدثنا قرة ، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لو آمن بي عشرة من اليهود لآمن بي اليهود) .

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم ([39])

الشرح : إن الإسلام دين سلام وعقيدة حب ونظام يستهدف جمع كل الناس تحت لواء الدين إخوة متعارفين متحابين ، وحين توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوة **العامّة** و**الزعماء والعلماء** إنما أراد تكوين مجتمع فاضل تحميه القيادة الراشدة والرعية الصالحة .

ولم يعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة **الزعيم** أو **العالم** عائقا يحول دون توجيه الدعوة إليه ، بل كان منهجه دائما هو الحفاظ على أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة ، وهذا الذي تجسد في معاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لثمامة بن أثال زعيم قومه حين قبض عليه وصار أسيرا بين يديه .

قال ابن حجر : (وفي قصة ثمامة من الفوائد : ربط الكافر في المسجد والمن على الأسير الكافر وتعظيم أمر العفو عن المسيء ، لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبا في ساعة واحدة لما أسداه النبي صلى الله عليه وسلم من العفو والمن بغير مقابل، وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام **ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد الكثير من قومه**) ([40])

---

[38] صحيح البخاري –كتاب : التفسير – باب : (قل يا أهل الكتاب) (214/8)(4553).

[39] صحيح مسلم –كتاب : الجهاد و السير – باب : كتابة النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الإسلام (1393/3) (1773) و الآية من سورة آل عمران برقم 64 .

[40] صحيح البخاري –كتاب : مناقب الأنصار – باب : إتيان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم المدينة (**349/7**) (**3941**) .

و قال النووي : (هذا من تأليف القلوب لمن يرجى اسلامه **من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير**) ([41])

ومعاملة الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الزعماء بهذا الأسلوب الرفيع والحكمة البالغة ، سواء بدعوتهم مشافهة أو مكاتبة هو أدب نبوي عال إنتهجه رسول الله كما انتهجه إخوانه من الأنبياء قبله .

قال الإمام أحمد بن محمد التميمي النجدي : (وقد أدب الله تعالى أنبياءه في خطابهم للرؤساء من أعدائه ، فقال لموسى وهارون في حق فرعون : (**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**) طه **44**

و ما ذلك ذلك مراعاة لقلبه حتى لا ينصرف بالقول الخشن ، فكيف برئيس تقدم في العلم تطلب فوائده وترجو الخير في ايراده فأحرى بنا أن نذلل له العبارة ونوطىء له جانب الجدل لتنهال فوائده انهيالا) ([42])

إن حسن التعامل الذي يجعله الله تعالى سببا في هداية زعيم أو حاكم ينتج عنه للأمة خير عميم مثلما أن سوء التعامل معه – والذي قد يكون سببا في تنفيره – ينتج عنه شر كبير .

لهذا نجد كيف أن رسول الله يشدد في النهي عن منابذة الحكام العصاة من المسلمين والخروج عليهم لما ينجم عنه من فتن ومهالك .

روى عوف بن مالك الأشجعي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم) قالوا : قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال :(لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعة) ([43])

وعلى الداعية المسلم أن يدرك أن استجابة هذا النوع من المدعوين صعب في الغالب إذ عادة ما يتصورون أن استجابتهم للحق والهداية تسلبهم مراكزهم ، فيُحال بينهم وبين جاههم وعزهم وشهواتهم فيقوى المانع من القبول جدا .

– صحيح مسلم – كتاب : صفات المنافقين و أحكامهم – باب : نزول أهل الجنّة (**2151/4**) (**2793**) بلفظ :(لو تابعني عشرة من اليهود لم يبق على ظهرها يهودي إلا أسلم)

فتح الباري (111/8)

[41] صحيح مسلم بشرح النووي (89/12)

[42] الفواكه العديدة في المسائل المفيدة (360)

[43] صحيح مسلم – كتاب : الإمارة – باب : خيار الأئمة و شرارهم (1482/3) (1855)

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :(فإن انضاف الى ذلك خوفه من أصحابه وعشيرته وقومه على نفسه وماله وجاهه كما وقع لهرقل ملك النصارى بالشام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ازداد المانع من قبول الحق قوة ، فإن هرقل عرف الحق وهمّ بالدخول في الإسلام ، فلم يطاوعه قومه ، وخافهم على نفسه ، فاختار الكفر على الإسلام بعدما تبين لهم الهدى) ([44])

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب رحمه الله تعالى :(وقد اجمعت المصادر الأجنبية المعتمدة على أن هرقل كان شديد التدين عظيم الإيمان ، فليس من الغريب أن يستهويه الكتاب النبوي وماجاء فيه – بالرغم من ايجازه – من رفق الدعوة وحكمة النبوة، وليس من المبالغ فيه ، ما جاء حول تجاوبه مع الكتاب النبوي تجاوبا واضحا، ولكن تجاوبه لم يخرج أبدا الى حيز التنفيذ ، إذ كان ملكه ومصيره في حاضره ومستقبله أغلى عليه من الإيمان ، فآثر الدنيا على الآخرة ، وما عند الناس على ماعند الله ، وقد حاول أن يجد طريقا لا خطر فيه على ملكه ومستقبله فوارب في ميله لى الإسلام ، فقوبلت مواربته بالرفض الشديد العنيف من حاشيته ورجاله وأهل دولته وقساوسته ، فتخلى عن تلك المحاولة الى الأبد ومضى مع التيار السائد الذي كان قوي عارما وآثر السلامة على مايمكن أن يحيق به من أخطار) ([45])

على المسلم الذي يري أم يعرض الإسلام على هؤلاء الزعماء أن يدرك أنه يتعامل مع إنسان ذي نفسية وطبيعة لها في الغالب خصائصها التي تميزها وظروفها التي تحكمها ، فان أدرك ذلك كان أسلوب دعوته أنجح وتأثيره- بإذن الله تعالى – أقوى .

ولنا أن نتساءل : لماذا اختار رسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب مع ثمامة؟ ولماذا دعا هرقل بتلك الحكمة ؟

والجواب : أنه صلى الله عليه وسلم أدرك طبيعة نفوسهم وظروفهم لأن موانع الإستجابة عندهم كثيرة نذكر منها ما يلي :

أولا : شعورهم بالكبر والإستعلاء : وهو شعور يحول دون رؤية الحق في الغالب أو قد يرى الحق ولكنه يستنكف عن الإجابة كرها من أن يصير تابعا لغيره وقد ألف أن يتبعه الناس ، ومن الآيات الدالة على هذه الصفة عندهم قوله تعالى : **(ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين، الى فرعون وملأيه فاستكبروا وكانوا قوما عالين، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون، فكذبوهما فكانوا من المهلكين)** المؤمنون **45-48**

---

[44] – هداية الحيارى (16)

[45] السفارات النبوية (75)

و قوله تعالى: (**وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا**) الزخرف **31-32**

قال ابن عباس رضي الله عنه : (يعنون بالرجل العظيم : جبار من جبابرة قريش) ([46])

فهم بدافع نفوسهم المستعلية إستصغروا شأن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يروه أهلا للرسالة ، في حين رأوا أنفسهم وأمثالهم من الكبراء أهلا لها ، فراعى رسول الله هذا الجانب من نفوسهم المستعلية إذ خاطبهم بالأسماء والألقاب التي يحبونها ، إذ خاطب هرقل بما يليق به حاكما وملكا قائلا: (**هرقل عظيم الروم**) وذلك من أدب رسول الله وحكمته في التعامل مع هذه النفوس.

بل قد اعتبر بعض أهل العلم تسمية الملوك والرؤساء بما يليق بهم وبمقامهم ليس إلا إقرارا بما اكرمهم به الله تعالى:

فيقول الإمام أبو الحسن الماوردي : (إن الله عزّ وجل أكرمهم بالصفة التي وصف بها نفسه فسماهم ملوكا وسمى نفسه ملكا فقال :(**ملك يوم الدين**) الفاتحة **5** ، وقال : (**فتعالى الله الملك الحق**) المؤمنون **116** ، وقال فيما وصف به البشر : (**إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا**) البقرة **247** ، وقال :(**إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا**) المائدة **20** ، وقال : (**و قتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة**) البقرة **251**) ([47])

هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب كل إنسان بأسلوب يراعي فيه ما تميل إليه نفسه وتحبه ، فخاطب الملوك بهذه اللغة التي تعبر عن حكمة بالغة في انتقاء أساليب الدعوة والتعامل خاطبهم كل حسب موقعه ومكانته بين قومه حتى يرق قلبه وتتهيأ نفسه للتقبل والسماع.

ثانيا : حبهم للرياسة والجاه : إن الإنسان محب لما ألف العيش فبه -غالبا – فكيف إذا كان هذا العيش في كنف الجاه والرياسة ، لذلك فإن هؤلاء الزعماء عادة ما يرفضون الإستجابة للدعوة خوفا من أن تسلبهم جاههم وسلطانهم الذي ألفوا العيش فيه .

وقد أقر القرآن الكريم بهذه الحقيقة ، فقال الله تعالى :(**وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد**) سورة ص **6** .

---

[46] تفسير ابن كثير (261/5)

[47] نصيحة الملوك المنسوب لأبي الحسن الماوردي – تحقيق و دراسة : فؤاد عبد المنعم أحمد (51)

قال ابن جرير : (إن الملأ قالوا إن هذا الذي يدعونا اليه محمد صلى الله عليه وسلم من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والإستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه) ([48])

فقد رفض هؤلاء الزعماء دعوة نبيهم لظنهم أنها تفقدهم جاههم وسلطانهم على الناس ، وتحرمهم حياة الترف والنعمة التي تعودوا عليها .

وعادة المترفين لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة والإنغماس في الملذات أنهم يسارعون قبل غيرهم في تكذيب رسل الله ورد الحق الذي جاءوا به إستدلالا باطلا بما هم عليه من كثرة المال والأولاد وسعة الجاه والسلطان وكثرة الأتباع وعلو منزلتهم عند الناس ([49])

ولذلك قال الله تعالى : (**وما أرسلنا من قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين، قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون**) سبأ **34-36**

سؤال : ولكن هل يصح الإقرار ببعض العز والشرف لمن يرجى إسلامه ، وهل في سنة رسول الله ما يجيز ذلك ؟.

والجواب : أن علماءنا الأجلاء قد قرروا أن أحكام الإسلام مرتبطة بمقاصدها وتدور مع تلك المقاصد وجودا وعدما ، فبقول الإمام الشاطبي : (إن الأعمال بالنيات ، والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات ، والأدلة على هذا المعنى لا تنحصر ويكفيك منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادة وما هو عبادة وفي العبادات بين ما هو واجب وغير واجب) ([50])

وعلى ذلك فما دام القصد من إقرار هذا الزعيم على بعض العز والشرف يجذبه الى الإسلام ويحببه اليه فان الواجب هو ذلك ، ما لم يكن في ذلك ضر بالإسلام وشريعته ، وقد أعطى رسول الله أبا سفيان – وهو يومئذ خصم للإسلام – مرتبة من الشرف والجاه تأليفا لقلبه ، وكان ذلك يوم الفتح حين قال العباس لرسول الله : يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر فاجعل له شيئا ، قال : (نعم

---

[48] تفسير الطبري (27/4)

[49] السنن الإلهية (184)

[50] الموافقات (246/2)

من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)([51])

فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشبع فيه عاطفة الفخر ويستميله للإسلام ، وحتى يشعر بأن مكانته محفوظة بين قومه حتى لو أسلم ([52]) .

ثالثا : جهلهم بحقيقة الإسلام : إن مما يؤسف له أن كثيرا من الناس من غير الملمين لا يعرفون الحقائق الإسلامية إلا عن طريق ما يكتبه وينقله أعداء الإسلام ، فينقلون صورته شائهة كما يحبون وعلى ما تهوى أنفسهم المعادية للإسلام .

فكثيرا ما تصل هؤلاء الزعماء صور خاطئة وتقارير زائفة عن حقيقة الإسلام ، أو قد يتصورون هم صورا مخافة لحقيقة الدين ، مثلما أنكر **الملأ** من قوم نوح عليه دعوته بحجة أمه نبي بشر ! ولو عرفوا وأدركوا أنه لو لم يكن بشرا مثلهم لاستحال عليه أن يكلمهم أو يدعوهم ويفهمهم دعوته ، كما أنكروا عليه أن أتباعه ليسوا إلا أولئك الفقراء والبسطاء ، فقد جهلوا أن ألفقر والضعف لا علاقة له بصفاء النفوس والإستجابة للإيمان ، قال تعالى :(**فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين**) هود **27**

كما أن ظروف مواقعهم التي هم فيها عادة ما تكون من أسباب بعدهم عن مجالسة العلماء وبالتالي معرفة صفاء الدين وسمو أحكامه ، فيقعون تحت تأثير **البطانات** التي تتولى غالبا نقل صور الدين والمتدينين شائهة شائبة .

جاء في " نصيحة الملوك " :(أنهم أكثر الناس انشغالا وأعظمهم أثقالا وأبعدهم عن ممارسة أمورهم بأنفسهم ، ومشاهدة أقاصي أعمالهم بأعينهم ، وليس كل مستعان به يعين ولا كل وال يستقل بما يلي ، وأنهم أبعد الناس عن مجالسة العلماء وحضور مجالسة الفقهاء) ([53])

سؤال : **هل كان لسفراء النبي صلى الله عليه وسلم دور في نشر الدعوة الإسلامية بين هؤلاء الزعماء ؟**

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب – رحمه الله – : (لقد كان هدف السفارات النبوية هو الدعوة الى إعتناق الإسلام ، فكان سفراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين أرسلهم الى الملوك والأمراء في زمانه دعاة الى الإسلام وكانوا صفوة الدعاة ...

---

[51] قال الهيثمي : رواه الطبراني و رجاله رجال الصحيح – المجمع (166/6)

[52] أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية – د/ زياد محمود العاني (16

[53] – نصيحة الملوك (**51**)

ودراسة سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم تستحق العناية الفائقة من أجل الأسوة الحسنة المقتبسة من النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب اختيار السفراء من أجل ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم ...

والعبرة من عرض سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم للحاضر والمستقبل ، تكون للذين يملكون القرار في تولية السفراء حتى يحسن الملوك والرؤساء والأمراء اختيار السفراء ومن يعمل معهم بهدي سمات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم ...

والعبرة أيضا تكون لكل فرد من أفراد الأمة ، ليعرف كيف ينبغي أم تكون سمات السفير الصالح ليكونوا قادرين على النهوض بواجباتهم من أجل مصالح أمتهم وبلادهم) ([54])

إن الإسلام يدعو الى معرفة قدر الرجال والإقرار بها تأليفا لقلوبهم ، وهو المنهج الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كل من كان ذا شأن في قومه .

فهذا عدي بن حاتم النصراني وهو ابن حاتم الجواد المشهور وكان شريفا في قومه يروي عن نفسه فيقول :

(... فخرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ،فدخلت عيه وهو في مسجده فسلمت عليه ، فقال : (**من الرجل ؟**) فقلت : عدي بن حاتم ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بيالى المدينة ، فوالله إنه لعامد بي اليه – أي قصد بي الى الدار – إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفنه فوقف لها طويلا فكلمته في حاجتها ، فقلت في نفسي : والله ما هذا بملك ! ثم مضى بي صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل تناول وسادة من أدم محشوة ليفا فقذفها إلي فقال :(**إجلس على هذه**) فقلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : (**بل أنت**) **فجلست عليها وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض**) ([55])

وفعلا كان هذا السلوب في التعامل – مع حسن التعريف بالإسلام – سببا في هداية هذا الرجل الزعيم الى الإسلام .

بل لقد بقي قدر هذا الرجل معروفا ومحفوظا حتى بعد إسلامه ، فقد روى البخاري عن عدي بن حاتم قال : (أتينا عمر في وفد فجعل يدعو رجلارجلا ويسميهم فقلت : أما تعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : بلى أسلمتَ إذ كفروا ، وأقبلت إذ أدبروا ، ووفيت إذ غدروا ، وعرفت إذ أنكروا، فقال عدي : فلا أبالي إذا) ([56])

---

[54] السفارات النبوية (270-271) – بتصرف

[55] مصنف ابن أبي شيبة (342/7) (36606) ، و الإصابة (471/4)

[56] صحيح البخاري – كتاب : المغازي – باب: قصة وفد طيء (129/8) (43949)

قال بن حجر : : (فقال عدي : فلا أبالي إذا : أي : إذا كنت تعرف قدري فلا أبالي إذا قدمت علي غيري) ([57]) .

ومثلما يحرص الإسلام على إنتقاء الأسلوب الأمثل في دعوة هؤلاء الزعماء ، فهو يحرص أيضا على إنتقاء اسلوب النصح لهم بطريق يسقط هيبتهم أمام عامتهم .

روى عياض بن غنم الأشعري ([58]) رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده فليخل به ، فان قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي عليه) ([59])

– لماذا حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على دعوة الزعامات الدينية من خلال حديث البخاري (لو آمن بي عشرة من اليهود ...) ؟

تكاد تكون الزعامات الدينية هي الأكثر تأثيرا في أتباعها ومن خلال هذا الحديث يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم رغبته الشديدة في استجابة أحبار اليهود لدعوته كما يدل على ذلك ظاهر الحديث .

قال الإمام النووي : (المراد : عشرة من أحبارهم) ([60]) ، إذ تمنى رسول الله أن يسلم لدين الله أقطاب اليهود وزعاماتهم الدينية ، وذلك لما لهم من كبير الأثر في أقوامهم وأتباعه .

قال ابن حجر :(والذي يظهر أنهم الذين كانوا حينئذ رؤساء في اليهود ، ومن عداهم كان تبعا لهم فلم يسلم منهم إلا قليل ، كعبد الله بن سلام وكان من المشهورين بالرياسة في اليهود عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن بني النظير أبو ياسر بن أخطب وأخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي الحقيق ، ومن بني قينقاع عبد الله بن حنيف وفنحاص ورفاعة بن زيد .

فهؤلاء لم يثبت إسلام أحد منهم و **كان كل منهم رئيسا في اليهود ، ولو أسلم لاتبعه جماعة منهم**) ([61])

---

[57] فتح الباري (129/8)

[58] هوعياض بن غنم بن زهير بن أبي شداد القرشي أبو سعيد ، له صحبة ، أسلم قبل الحديبية و شهدها ، كان صالحا فاضلا ، و كان يسمى زاد الركب ، يطعم الناس زادهم فاذا نفذ نحر لهم جمله توفي سنة 20 هجرية، أنظر : أسد الغابة (4/164-165)

[59] أخرجه الحاكم في مستدركه –كتاب : معرفة الصحابة – باب: ذكر عياض بن غنم الأشعري رضي الله عنه (290/3) ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجه ، قال الذهبي : فيه إبن رزيق واه – و البيهقي في سننه ، كتاب : قتال أهل البغي – باب: النصيحة لله و لكتابه ورسوله و للأئمة المسلمين و عامتهم و ما على الرعية من إكرام السلطان المقسط (8/164) (16437).

[60] صحيح مسلم بشرح النووي (17/136).

[61] فتح الباري (7/350).

إن استجابة هذه الزعامات الدينية لدعوة الإسلام عني إزاحة ركام كبير من التحريف والتشويه عن أذهان وعقائد الآلاف من الأتباع وتخليص لهم من ضغط أولائك " الرموز " الدينيين الذين أعطوا لأنفسهم سلطات كبيرة ما كان الدين الحق ليعطيهم إياها.

يقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى :(**يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله**) التوبة **34** :

(وذلك لأنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس ، يأكلون اموالهم بذلك ، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيئ إليهم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم إستمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات) ([62])

واعتماد الرسول صلى الله عليه وسلم أسلوب الدعوة تجاه هؤلاء الرموز من اقطاب رجال الدين إنما كان ينطلق من فكرة قرآنية تنسجم مع خط الأديان المشترك الذي ينطلق من فكرة أصيلة ترفض كل امتياز لأي بشركان !

فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لكل التاس الذين يدعوهم أنه ليس لأي شخص حق الطاعة المطلقة أمام طاعة الله تعالى ولو كان نبيا ، فالعبودية لله وحده .

قال تعالى :(**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون**) آل عمران **79-80**

وكان من ثمار دعوته صلى الله عليه وسلم لرجال الدين أن آمن به من آمن فكان فتحا للإسلام والمسلمين ، ومن كفر منهم فقد أقام عليه رسول الله الحجة (**ليهلك من هلك عن بينة**) الأنفال **42**

ومن بين هؤلاء الذين استجابوا الحبر اليهودي عبد الله بن سلام الذي يروي الإمام أحمد في مسنده قصة إسلامه :

عن عوف بن مالك الأشجعي قال : (إنطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا معشراليهود أروني إثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يحط عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه) فأسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثم ثلث فلم يجبه أحد ، فقال (أبيتم ، فو الله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي ،

---

[62] تفسير ابن كثير (102/3)

آمنتم أم كذبتم) ثن انصـــرف وأنا معه حتى كدنا أن نخرج ، فإذا برجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل فقال ذاك الرجل: أي رجل تعلموني منكم يا معشـر اليهود ؟ قالوا : والله ما نعلم فينا رجلا كان أعلم بكتاب الله ولا أفقهه منك ولامن أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال : فإني أشـهد بالله أنه نبي الله الذي تجدون في التوراة ، قالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا فيه شرا وفقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : كذبتم لن نقبل منكم قولكم ، قال فخرجنا ونحن ثلاثة : رسـول الله وأنا وابن سـلام) ([63]) ، فأنزل الله تعالى : (قل أرءَيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشـهد من بني إسـراءيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) ([64])

لقد كانت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم للزعامات الدينية من غير المسلمين متعددة الحكم غزيرة الفوائد إذ كان يهدف الى كسب هؤلاء الأحبار والرهبان وكسب من زراءهم من أتباع ، كما كان يهدف الى تحطيم كل الأصنام التي تعبد من دون الله .

إننا اذا تأملنا أبعاد هذا الأســـلوب النبوي في دعة الزعماء والعلماء من غير المســـلمين وجدنا بالحجة العملية والنتائج الواقعية لهذا الأسلوب ، أن الحق يجد مكانه في قلب المدعو – بإذن الله تعالى – كائنا ما كان موقعه أو مركزه ، بعد تقديم السبب بحسن عرض الإسلام بأمثل الأساليب ، فإن لم تثمر تلك الأساليب وأبى أولئك إلا الكفر يكون المسلم قد أدى ما عليه ...

على أن يدرك المســـلم أن هذا"الحبر " أو " الراهب " لا يعدو أن يكون إلا إنســـانا فيه نوازع الخير ونوازع الشـــر ، وأســـلوب التعامل الحكيم القائم على الدعوة بالعلم والفهم والحجة والحكمة هو الذي يحرك في هذا الحبر والراهب نازع الخير ، مثلما أفلح رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن سلام وغيره .

فمنهج رسول الله في الدعوة هو منهج قرآني حكيم يكشف عن نوازع النفوس البشرية وما تنطوي عليه من خير أو شر ، وقد أشـار القرآن الكريم الى ذلك ، كقوله تعالى : (**لتجدن أشـد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشـركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون**) المائدة **82**

---

[63] مسند أحمد (**25/6**) (**24030**) و مسند الشاميين للطبراني (**77/2**) (**948**) .

و الحاكم في مستدركه (**410/3-416**) و قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، و ذكره الهيثمي بهذا اللفظ و قال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، المجمع (**10517-106**)

[64] سورة الأحقاف – الآية (10)

يقول الطبري : (إن الله تعالى ذكره أخبر عن النفر الذين أثنى عليهم من النصـــارى بقرب مودتهم لأهل الإيمان بالله ورســـوله ، أن ذلك إنما كان منهم لأن منهم أهل إجتهاد في العبادة وترهب في الديارات والصـــوامع ، وأن منهم علماء بكتبهم وأهل تلاوة لها ، فهم لايبعدون عن المؤمنين لتواضعهم للحق إذا عرفوه ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبينوه لأنهم أهل دين واجتهاد فيه ونصيحة لأنفسهة في ذات الله وليسوا كاليهود الذين قد دربوا بقتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه)([65])

ويقول الزمخشري :(**بأن منهم قسيسين ورهبانا**) أي : علماء وعباد وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة ولا كبر فيهم ، واليهود على خلاف ذلك ([66])

وبشيء من التأمل العميق لهذا الأسلوب النبوي البديع وهو يدعوا الرموز الدينيين من غير المسلمين نلمس إيحاءا آخر عظيم الأهمية وهو أن الدعوة للرهبان والأحبار تشمل –في إيحائها – العلماء المسلمين الذين يجعلون لأنفسهم مركزا فوقيا يستعلون به على الناس ، ويستغلون تمثيلهم للدين في تكديس الثروات بالباطل ، كما قال سفيان بن عيينة :(من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى) ([67])

إن الرســـالات لم تنزل لتخلق من الناس الذين يحملونها أو يمثلونها طبقة جديدة تتمتع بالإمتيازات الكبيرة بدون حق وتمارس كل شيء دون حساب ، بل انطلقت لتحرر الإنسان من عبودية أخيه الإنسان ولتمنحه الشعور بالكرامة المنبثقة عن الكفاءة والعمل الصالح ليسعى الى الحق من موقع الإحساس بحريته الفكرية من دون خضوع لبشر أو لغيره ، وليقف بين يدي الله مع كل البشر في وحدة الإخلاص والطاعة والعبودية المطلقة الخالصة ([68])

سمو الأخلاق الإسلامية في ضوء السنة النبوة

– قال البخاري : حدثنا عبيد بن اسماعيل ، حدثنا أبو أسامة ، عن هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنهما – قالت : قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصل أمي ؟

قال : (**نعم صلي أمك**) .

---

[65] تفسير الطبري (505/10-506).

[66] الكشاف (668/1)

[67] تفسير ابن كثير (102/3)

[68] الحوار في القرآن لمحمد حسين (131/1)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي. ([69])

– قال البخاري : حدثنا سـليمان بن حرب ، حدثنا حماد وهو ابن زيد عن ثابت ، عن أنس رضـي الله عنه قال : كان غلام يهودي يخدم النبي صـلى الله عليه وسـلم فمرض فأتاه النبي صـلى الله عليه وسـلم يعوده فقعد عند رأسـه فقال له :(**أسلم**) فنظر الى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا القاسم ، فأسلم فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (**الحمد لله الذي أنقذه من النار**) .

التخريج : أخرجه البخاري والنسائي والحاكم . ([70])

– قال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شـعيب عن الزهري ، قال :أخبرني عروة أن عائشـةرضـي الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السّام عليكم ، ففهمتها فقلت : عليكم السّام واللعنة فقال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : (**مهلا يا عائشـة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله**) فقلت : يارسـول الله أولم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(**فقد قلت وعليكم**)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم ([71])

الشـرح : إن حديث أسماء رضـي الله عنها مع أمها يعطي الصـورة العملية لحسـن التعامل الإسـلامي والخلق الرفيع الذي يدعو اليه الإسـلام ، إذ المسـلم مكلف بأن يلقى أهل الأرض قاطبة بفضـائل لا ترقى اليها شـبهة ، فالصـدق واجب على المسلم مع المسلم وغيره والسماحة والوفاء والمروءة والتعامل والكرم.

---

[69] صحيح البخاري –كتاب : الهبة و فضلها – باب : الهدية للمشركين (**291/5**) (**2620**)

صحيح مسلم –كتاب : الزكاة – باب : فضل النفقة و الصدقة على الأقربين و الزوج والأولاد و الوالدين و لو كانوا مشركين (**2/ 296**) ، و مسند أحمد (**347/6**) (**26985**) ،وسنن البيهقي – كتاب : الزكاة –باب : صدقة النافلة على المشركين و على من لايحمد فعله (**191/4**) .

[70] صحيح البخاري –كتاب: الجنائز – باب : إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه و هل يعرض على الصبي الإسلام (280/3) (1356) ، و السنن الكبرى للنسائي (356/4) (7500) بلفظ قريب ، و مستدرك الحاكم –كتاب : الجنائز (363/1) بلفظ قريب.

[71] صحيح البخاري –كتاب : الإستئذان – باب : كيف الرّد على أهل الذّمة بالسلام (**41/11**) (**6356**) -صحيح مسلم –كتاب :السلام – باب : النهي عن إبتداء أهل الكتاب بالسلام (**1706/4**) (**2165**)

بل إن الإسلام لا يعتبر حتى الكفر مانعا من إسداء المعروف وحسن التخلق ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى : (فوصف الكفر ليس بمانع من الدفع إليهم) ([72]) ، أي : دفع الصدقة اليهم ، و على ذلك كان عمل الصحابة رضي الله عنهم .

روى عبد الله بن دينار قال : سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول : رأى عمر حلة سيراء تباع ، فقال يا رسول الله إبتع هذه والبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوفود ، قال : (إنما يلبس هذه من لا خلاق له) ، فأوتي النبي صلى الله عليه وسلم منها بحلل ، فأرسل الى عمر بحلة ، فقال : كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت ؟ قال : (إني لم أعطكها لتلبسها ولكن تبيعها أو تكسوها) فأرسل بها عمر الى أخ له من أهل مكة قبل أن يسلم([73])

فهذا عمر بن الخطاب لم ير في كفر أخيه مانعا له من إسداء المعروف اليه كيف لا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأذن للصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر أن تحسن معاملة امها المشركة " قيلة بنت عبد العزى " ([74]) لأن سماحة الإسلام تدعو الى حفظ حقوق الآخرين ولو كانوا كافرين .

فالقرآن الكريم هو التصور العام الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرك ضمنه وهو القائل : (**لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين**) الممتحنة**8** .

وحفاظا على الأخلاق الإسلامية حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على صلة الرحم بين البنت المؤمنة وأمها الكافرة ، قال ابن حجر ب : جواز صلة القريب ولو كان على غير دين الواصل ([75])

كما أورد قول الخطّابي :(فيه أن الرّحم الكافرة توصل بالمال ونحوه كما توصل المسلمة) ([76])

و بمثل ذلك قال النووي : (وفيه جواز صلةالقريب المشرك) . ([77])

و من ملامح سمو الأخلاق الإسلامية في مدرسة النبوة تلك الزيارة التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم للغلام اليهودي المريض ، فهو السلوك النابع من تلك الرحمة التي قذفها الله تعالى في قلوب عباده المؤمنين ، فهو شعور يجعل

---

[72] أحكام اهل الذمة (300/1)

[73] صحيح البخاري –كتاب: الهبة و فضلها – باب:الهدية للمشركين (290/5) (619).

[74] فتح الباري (233/5)

[75] المصدر نفسه (281/6)

[76] المصدر نفسه (234/5)

[77] صحيح مسلم بشرح النووي (97/4)

المسلم يرق لآلام الخلق ويسعى لإزالتها ، وهذه الرحمة ليست إلا كمالا في الطبيعة الإنسانية ، أما القسوة فهي ارتكاس بالفطرة ونزول بها الى أسوأ المراتب.

قال ابن حجر تعليقا على حديث زيارة النبي الكريم للغلام اليهودي المريض : (وفي الحديث جواز استخدام المشرك وعيادته إذا مرض وفيه حسن العهد) ([78])

وقد سئل الإمام أحمد عن حكم عيادة الكفار فقال : (أليس قد عاد النبي صلى الله عليه وسلم اليهودي ودعاه الى الإسلام) ([79])

فهذه السلوكات التي يتعامل بها المسلمون مع غيرهم هي التي تظهر ما في الإسلام من سمو اخلاق وفضيلة وإحسان ورحمة وصدق وأمانة ، فذلك أعظم مرغب للأجانب في الإسلام ، كما كان خلافهم أعظم منفر لهم منه.

وارتقاءا بالأخلاق الإسلامية لم يفرق هذا الدين العظيم بين نفس المسلم ونفس الكافر ، فقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام لجنازة رآها ، ولما بدى التعجب من اصحابه كيف يقوم لها وهي ليهودي ! ؟ كان جوابه الشريف :(**أليست نفسا !!**) .

روى البخاري في صحيحه ان سهل بن حنيف وقيس بن سعد بن عبادة كانا بالقادسية ، فمُرّ عليهما بجنازة فقاما ، فقيل لهما : إنه من أهل الأرض ، فقالا : مُرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بجنازة فقام ، فقيل له : إنه يهودي ! فقال : (**أليست نفسا**) ([80])

قال ابن حجر : (ومقصود الحديث أن لا يستمر الإنسان على الغفلة بعد رؤية الموت لما يشعر ذلك من التساهل بأمر الموت ، فمن ثمة استوى فيه كون الميت مسلما أو غير مسلم) ([81])

---

[78] فتح الباري (221/3)

[79] – أحكام أهل الذمة (**200/1**)

[80] صحيح البخاري – كتاب : الجنائز – باب : من قام لجنازة يهودي (**231/3**) (**1312**)

[81] و صحيح مسلم – كتاب : الجنائز – باب : القيام للجنازة (661/2) (961)

وتأكيدا على الأخلاق الإسلامية في التعامل مع غير المسلمين ذهب أهل العلم الى جواز مواساتهم ف مصابهم وذلك بتعزيتهم في موتاهم ، عن ابن جريج والثوري قالا : (يعزي المسلم الذمي بقوله : لله السلطان والعظمة عش يا إبن آدم ما شئت ولا بد من الموت) ([82])

وكان أبو عبد الله بن بطة يقول :(يقُال في تعزية الكافر : اعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحدا من أهل دينك) ([83]) ، وللمسلم أن يختار من الأدعية ما يراه مناسبا مما ليس فيه دعاء للميت ولا قوة للحي .

وعلى المسلمين أن يفهموا جيدا هذه السنة الربانية وهم يتعاملون مع غيرهم ، ولا يشفع لهم –إن عدموا الرحمة والرفق وحسن الخلق – أنهم يدعون الى الإسلام وأن على الناس أن يتحملوا القسوة والغلظة لأنهم يعملون لمصلحتهم ويدعونهم الى الجق .

فالناس لا يميلون الى دعاة الإسلام إلا إذا كانوا رحماء بهم متواضعين معهم يخصونهم بوجوه البر والشفقة والمعونة بدون تكبر أو استعلاء او خشونة او سوء خلق .

فالناس في حاجة الى كنف رحيم والى رعاية فائقة والى بشاشة سمحة والى ود يعمهم وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، إنهم في حاجة الى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم ، يحمل همومهم ويجدون عنده دائماالإهتمام والرعاية والعطف والسماحة([84])

و قد استطاع خصوم الإسلام المعاصرون ان يسحبوا البساط من تحت أقدام المسلمين برفعهة شعار " الله محبة " ويجذبوا اليهم آلاف المسلمين ([85])

لقد أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصول وقواعد الخلق الرفيع بما سنه من أحكام وتشريعات وصدق الله في كتابه العزيز (**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**) **الأنبياء 107** ، إذ جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم الإنسانية الكاملة في أخلاقه ومعاملاته مع المسلمين وغير المسلمين .

---

[82] فتح الباري (232/3).

[83] مصنف عبد الرزاق – باب : تعزية المسلم الذمي (42/6) (9947)

[84] المغني و الشرح (410/2)

[85] السنن الإلهية –للدكتور عبد الكريم زيدان (248) – بتصرف

و ذلك من خلال الهيئات و الجمعيات التنصيرية المشبوهة المزروعة في معظم بلدان العالم الإسلامي والمدعومة بترسانة من الوسائل المادية و البشرية لتمسح عن الأيتام دموعهم و تخفف عن المرضى آلامهم ، و بين هذه وتلك يمرّر مشروع التنصير باسم " الله محبة " ، فأين المسلمون !! ؟

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى : (ولقد أراد الله أن يمتن على العالم برجل يمسح آلامه ويخفف أحزانه ويرثي لخطاياه ويستميت في هدايته ويأخذ بناصر الضعيف ويقاتل دون قتال الأم عن صغارها ، فأرسل حمدا صلى الله عليه وسلم وسكب في قلبه من العلم والحلم وفي خلقه من الإيناس والبر ، وفي طبعه من السهولة والرفق ، وفي يده من السخاوة والندى ما جعله أزكى عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة وارحبهم صدرا) ([86])

أما في حديث عائشة رضي الله عنها فيبدو التعامل بالمثل السامية والأخلاق الفاضلة جليا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى من اليهود سوء خلق .

كيف لا وهو النبي العظيم الذي ما فتئ يوصي أصحابه وأمته بحسن الخلق :

روى الإمام مالك في" الموطأ " أن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : (لآخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز [87] أن قال : (أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل) ([88])

وعن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) ([89])

سؤال : إ ذا تعامل المسلم مع غيره ثم ظهر منه سوء خلق وإنحراف طبع ، فهل له أن يسايره في هذا الإنحدار الخلقي بدعوى الرد بالمثل ؟

والجواب : أن منطق الإسلام في التعامل مع الناس هو الدفع بالتي هي أحسن وعدم رد السيئة بالسيئة ، والحذر من الإستراج نحو الخطأ والمشي وراء لمنحدرين خلقيا ، ومن توجيهات القرآن الكريم في ذلك قوله تعالى : (**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) الفرقان 63** .

قال القرطبي : (أي يقول للجاهل كلاما يدفعه به برفق ولين) ([90])

---

[86] خلق المسلم (304)

[87] الغرز: موضع الركاب من رحل البعير ، أي عند سفره الى اليمن رسولا من قبل رسول الله صلى الله و سلم – أنظر : النهاية في غريب الحديث لإبن الأثير – مادة (غرز) (**359/3**)

[88] موطأ مالك –كتاب : حسن الخلق – باب : ما جاء في حسن الخلق (902/2)

[89] سنن الترميذي–كتاب : البرو الصلة – باب : ما جاء في معاشرة الناس (**313/4**) (**1987**)

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

[90] تفسير القرطبي (70-69/13)

وقال ابن كثير : (إذا سفه عليهم الجهال بالسيء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما) ([91])

فالمسلمون في جدهم ووقارهم وقصدهم الى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة لا يلتفتون الى حماقة الحمقى وسفه السفهاء ، ولا يشغلون وقتهم وجهدهم بالإشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك ، ويترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين ... لا عن ضعف ولكن عن ترفع ، ولا عن عجز ولكن عن استعلاء عن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا في ما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن الهاترة لما هو أهم وأكرم وأرفع) ([92])

وكذا قوله تعالى :(**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**) فصلت **34**

قال ابن كثير :(أي من أساء اليك فادفعه بالإحسان اليه ، فإذا فعلت قادته تلك الحسنة اليه الى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه قريب اليك) ([93])

فالصبر والتسامح والإستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر يرد النفوس الجامحة الى الهدوء والثقة ، فتنقلب الخصومة الى الولاء ومن الجماح الى اللين ... غير أن تلك السماحة تحتاج الى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد ،وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماجة أثرها حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا ، ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا (**3**)

لهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحفاظ على سمو الأخلاق الإسلامية وإن ساءت أخلاقهم معنا وموقفه مع اليهود الذين سلموا عليه بما يفيد الموت خير دليل ، كما أنه أنكر على عائشة رضي الله عنها ردها بالتعنيف على هؤلاء اليهود ونهاها عن الغلظة في الكلام وأمرها بالرفق واللين في الأمر كله ([94])

وعلى المسلم أن يدرك حقيقة ما ، وهي أن لا يكون كل الناس طيبين مسالمين ، فانه سيجد فيهم الغليظ واللئيم والظالم والمجرم .

---

[91] تفسير ابن كثير (259/4)

[92] في ظلال القرآن لسيد قطب (2578/5)

[93] تفسير ابن كثير (224/5).

[94] في ظلال القرآن (3121/5

يقول الإمام ابن حزم الأندلســـي رحمه الله :(الناس في أخلاقهم على ســـبع مراتب : فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب ، وهذه صـــفة أهل النفاق من العيابين ، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم وطائفة تذم في المشـــهد والمغيب وهذه صـفة أهل السـلاطة والوقاحة من العيابين ، وطائفة تمدح في الوجه والمغيب وهذه صـفة أهل الملق والطمع ، وطائفة تذم في المشـهد وتمدح في المغيب وهذه صـفة أهل السـخف ، وأما أهل الفضـل فيمسـكون عن المدح والذم في المشـاهدة ويثنون بالخير في المغيب ، أو يمسكون عن الذم ، وأما العيابون البرآء من النفاق والوقاحة فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب ، وأما أهل الســـلامة فيمســـكون عن المدح وعن الذم في المشـــهد والمغيب ، ومن كل من أهل هذه الصـــفات قد شاهدنا وبلونا) ([95])

كما يقول ابن القيم رحمه الله – مبينا أصناف الناس مع المسلم – :(إن الناس معه قسمان : موافق له موال ، ومعاد له معارض ، وعليه في كل واحد من هذه واجب ، فواجبه في أمرهم ونهيهم أن يأمر بالمعروف ، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم ، وينهاهم عن ضده وعدم مقابلتهم بالمثل والإنتقام منه لنفسه ، فقد قال تعالى : " **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**") ([96])

وقد انتبه أعداء الإسلام الى التراجع الخلقي الظاهر في حياة المسلمين ومدى اتساع الهوة بينهم وبين ما يدعو اليه دينهم .

يقول مارسيل بوازار :(ويشكل الخلق الإسلامي جزءا لا ينفصل عن الدين الذي هو في نظر السنة : طريقة التعامل مع الآخرين ، ولن نحكم الى أي مدى هو مطبق ومحترم في أيامنا ، فقد ذهب مصلح إسلامي كبير ([97]) الى حد القول بأن حياة المسلمين أصبحت في الوقت الحاضر " مظاهرة ضد دينهم "

فقد يكون ضعف الإيمان وانحرافاته مماثلة في الواقع لما قد تكونه الرذائل المتناقضة للفضائل المتعلمة من الله [تعالى] والنبي محمد [صلى الله عليه وسلم] وهي رذائل تسيء الى المسلمين : فساد العقيدة ، والجهل الفكري ، والظلم والإستبداد ، والخيانة والغش والمخادعة حتى حيال الله [تعالى] ([98])

---

[95] أحاديث الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لعبد الله المشبب اليماني (331)

[96] الأخلاق و السير في مداواة النفوس (47-48)

[97] مدارج السالكين (290/2) ، و الآية من سورة الأعراف برقم 199

يقصد الإمام محمد عبده في رسالة التوحيد (195-200)

[98] إنسانية الإسلام لمارسيل بوازار – ترجمة د / عفيف دمشقية (63)

– قال البخاري : حدثنا اسماعيل ، قال حدثني مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر رضـــي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم والترميذي وأحمد ومالك ([99])

– قال مسلم : حدثنا عبد الله بن مسلمة بن قعنب ، حدثنا حماد بن سلمة عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح وحدثنا يحي بن يحي قال : قرأت على مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله غليه وسلم قال :(إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم)

التخريج : أخرجه مسلم وأبو داود وأحمد ومالك ([100])

– قال البخاري : حدثنا ســـعيد بن عفير ، قال حدثني الليث قال حدثني عقيل عن ابن شـــهاب قال أخبرني محمود بن الربيع الأنصاري أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن شهد بدرا من الأنصار أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سار الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع ان آتي مسجدهم فأصلي بهم ووددت يارسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأتخذه مصلى، قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**سأفعل ان شاء الله**) قال عتبان : فغدا رسول الله صلى الله عليه وســـلم وأبو بكر حين ارتفع النهار فاســـتأذن رســـول الله فأذنت له ، فلم يجلس حتى دخل البيت ثم قال:(**أين تحب أن أصلي من بيتك ؟**) قال : فأشرت له الى ناحية من البيت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر فقمنا فصفنا فصلى

---

99 – صحيح البحاري –كتاب : الأدب – باب : من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (**10/360**) (**6104**)

– صحيح مسلم –كتاب : الإيمان – باب: حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (**1/79**)

سنن الترمذي –كتاب : الإيمان – باب : من رمى أخاه بكفر (**5/23**) (**2637**)

مسند أحمد (**2/60**) (**2559**)

موطأ مالك –كتاب : الكلام – باب : ما يكره من الكلام (2/984) (1777)

100 – صحيح مسلم –كتاب : البر و الصلة و الآداب – باب : النهي عن القول : هلك الناس

(**4/2024**) ، سنن أبي داود –كتاب : الأدب (**4/296**) (**4983**) ، مسند أحمد

(**2/272**) موطأ مالك –كتاب : الكلام – باب : ما يكره من الكلام (**2/984**)(**1778**)

ركعتين ثم سـلم ، قال : وحبسـناه على خزيرة صـنعناها له قال :فآب في البيت رجال من أهل الدار ذوو عدد فاجتمعوا فقال قائل منهم : أين مالك بن الدخيشن ؟ فقال بعضهم : ذلك منافق لا يحب الله ورسوله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**لا تقل ذلك ألا تراه قد قال لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله**) قال : الله ورسوله أعلم ، قال فإنا نرى وجهه ونصيحته الى المنافقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**فإن الله قد حرم على النار من قال لاإله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله**)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي ([101])

– قال البخاري : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(من حمل علينا السلاح فليس منا)

التخريج : أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ([102])

---

101 – صحيح البخاري –كتاب : الصلاة – باب : المساجد في البيوت (**638/1**) (**425**)

صحيح مسلم –كتاب : المساجد و مواضع الصلاة – الرخصة في التخلف عن الجماعة

بعذر (**455/1**) (**33**) ، مسند أحمد (**449/5**) (**23821**) ، سنن البيهقي –كتاب :

آداب القاضي – باب : لايقبل جرح فيمن ثبتت عدالته (**124/10**)

102 – صحيح البخاري –كتاب : الفتن – باب : قوله صلى الله عليه وسلم : (من حمل علينا فليس منا)

(**29/13**) (**7070**)

صحيح مسلم –كتاب : الإمام – باب : قوله صلى الله عليه وسلم : (من حمل علينا فليس منا)

(**98/1**) (**98**) و سنن الترمذي –كتاب: الحدود – باب: فيمن شهر السلاح (**59/4**) (**1459**)

السنن الكبرى (النسائي) (311/2) (3563)

الشـــرح : من المبادئ الإســـلامية المهمة في التعامل بين المســـلمين ، إلتماس المعاذير لهم وترك الطعن والتجريح لهم ، وأن يدرك المســـلم أن لأخيه المســـلم حرمة لا يجوز له إنتهاكها وإن كان في خلاف مع أخيه في فكر أو منهج ، وأن يتجنب المخاصـمة واللدد فيها لأنها ليسـت من شـيم المسـلمين ، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله – متحدثا عن صـفاي الداعية المسلم – : (... لا يخاصم بلسانه ، ولا ينوي الخصومة بقلبه ، ولا يخطرها على باله ، هذا في حق نفسه ، أما في حق ربه فالفتوة أن يخاصـــم بالله وفي الله ويحاكم الى الله كما كان النبي صـــلى الله عليه وســـلم يقول في دعاء الإســـتفتاح " وبك خاصمت واليك حاكمت " وهذه درجة فتوة العلماء الدعاة الى الله تعالى)([103])

والأحاديث التي بين أيدينا فيها التأصيل النبوي لقواعد التعامل مع المسلمين ، وأهمها : حفظ حرمتهم ومراعاة حقوقهم والحذر من منزلقات سوء التعامل معهم .

وفي حديث البخاري الأول تحذير نبوي الى المســـلم من أن يقع في أخطر المزالق وأضـــرها عليه وعلى أمته ، وهو أن يتمادى سـوء التعامل الى حد تضـيع فيه حرمة المسـلمين الى أن يكفر فيه بعضـهم بعضـا ، فيتراشـقون بأحكام التكفيلر والتضـــليل دون ضـــابط من شـــرع أو عقل ، وظاهر الحديث فيه الترهيب الشـــديد من هذا المنزلق الخطير ، يقول الإمام القسطلاني – مفسرا علة هذا الترهيب من تضييع حرمة المسلمين – : (لأنهم إن كان القائل صادقا في نفس الأمر فالمرمي كافر ، وإن كان كاذبا جعل الرامي الإيمان كفرا ، ومن جعل الإيمان كفرا فقد كفر) ([104]) ، حتى جعل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم عقوبة من يضـيع حرمة أخيه المسـلم بالتكفير دون أي ضـابط ، أن يبوء بها أحدهما ، فيسـتطرد الإمام القسـطلاني شـرحه للحديث قائلا : (... فقد باء : أي رجع بالكلمة أحدهما ، قيل المراد بأحدهما القائل خاصـة ، وهذا على مذهبهم في استعمال الكناية وترك التصريح بالسوء ، كقول الرجل لمن أراد أن يكذبه : والله إن أحدنا لكاذب ، ويريد خصمه على التعيين ، وحمله بعضهم على المستحل لذلك إذ المسلم لا يكفر بالمعصية ، أو المراد : يرجع عليه التكفير ، إذ كأنه كفر نفسه لأنه كفر من هو مثله) ([105])

وما قد يقع بين المسلمين من إختلاف في الإجتهادات وتعدد في الآراء لا يجوز بحال أن يوصلهم الى رمي بعضهم بعضا بكل نعوت النقائص والضلالة لأن الخطأ في الإجتهاد وارد ولايصح التشنيع عليه .

---

[103] مدارج السالكين (344/2).

[104] إرشاد الساري (66/9) .

[105] – المصدر نفسه (66/9)

وهاهو الإمام الشاطبي رحمه الله يحذر المسلمين من أن يشنعوا على بعضهم أو أن يبلغ بهم الأمر حتى الى التشنيع بعلمائهم ، فيقول رحمه الله : (... إن زلة العالم لا يصح إعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليدا له وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع ولذلك عُدت زلة، .. كما أنه لا ينبغي أن يُنسب صاحبها الى التقصير ولا أن يُشنّع عليه بها ولاينتقص من أجلها) ([106])

وفي مدرسة النبوة تعلم المسلمون أنهم مأمورون بمراعاة وحفظ حقوق بعضهم ، فلم ينتهكوا حرمتهم بالتكفير أو التضليل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطأ بين يديه الصحابة الكرام في مسائل عديدة فما كفرهم ولا فسقهم .

قال ابن حزم رحمه الله :(.. وكذلك أخطأ جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتيا فبلغه عليه الصلاة والسلام فما كفر بذلك احدا منهم ولا فسقه ولاجعله بذلك آثما) ([107])

لأن فتح باب الطعن في المسلمين لمجرد وقوعهم في الخطأ او لإختلاف في الفكر أو الإجتهاد قد تطور الى أن تطاول جهال وعوام المسلمين على حرمة علمائهم ، والى ذلك اشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قائلا : (فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض ، بل كل يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس كل من يُترك بعض كلامه لخطأ أخطأه لا يُكفر ولا يُفسق بل ولا يأثم) ([108])

كما يقول ابن أبي العز :(فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن ، خصوصا الذين هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، إذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم علماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم فإنهم خلفاء الرسول من أمته والمحيون لما مات من سنته) ([109])

---

[106] – الموافقات (168/4)

[107] – الفصل في الملل و الأهواء و النحل (354/3)

[108] — مجموع الفتاوى (100/35)

[109] شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (377).

سؤال : هل الجهل ببعض الأمور العقدية أو الأحكام الشرعية يستلزم التكفير أو التأثيم أو الإساءة الى حرمة الجاهل والمخطئ ؟

و الجواب : أن رفع الملام عن المخطئين من اصحاب الإجتهاد هو منحة ربانية أصلا تكرم بها الله تعالى على المسلمين ، فكيف يسلب المسلم منحة الله على أخيه المسلم المخطئ .

قال تعالى : (**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم**) الأحزاب**5**

قال ابن تيمية رحمه الله : (ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه تحقيقا للدعاء الذي استجابه الله لنبيّه وللمؤمنين حيث قال :(**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**))([110])

فالمطلوب من المسلمين هو العمل الجاد الى إيصال الحق وصافي العلم الى العوام من المسلمين بدل رميهم بالكفر والضلال ، ونصوص الشريعة كثيرة في بيان رفع الملام عن الجاهل ووجوب التنبيه الى تعليمه قبل إدانته وتكفيره .

واستدلالا من السنة النبوية على أن الجهل ببعض الأمور لا يستلزم التكفير وإنما يستلزم التعليم والتفهيم ، الحديث الذي ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن الرجل الذي قال :

(إذا أنا مت فأحرقوني ثم اسحقونني ثم اذروني في الريح في البحر ، فوالله لإن قدرعلي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحد ، قال : ففعلوا ذلك به ، فقال للأرض : أدّي ما أخذت فإذا هوقائم ، فقال له : ماحملك على ما صنعت ؟ فقال : خشيتك يا رب ، فغفرله بذلك) ([111])

وتعليقا وشرحا لهذا الحديث يقول ابن تيمية رحمه الله :

---

[110] درء تعارض العقل و النقل (103/2) – و الآية من سورة البقرة برقم 286 .

[111] صحيح البخاري – كتاب: التوحيد – باب: قال تعالى : " أنزله بعلمه و الملائكة يشهدون" (**571/13**) (**7508**) .

صحيح مسلم – كتاب: التوبة – باب : سعة رحمة الله تعالى و أنها تغلب غضبه (**2109/4**) (**2110**)

(فهذا رجل شـــك في قدرة الله وفي إعادته إذا ذري ، بل اعتقد أنه لا يُعاد ! وهذا كفر باتفاق المســـلمين لكن كان جاهلا لا يعلم ذلك وكان مؤمنا يخاف الله أن يعاقبه فغفر له بذلك ، والمتأوّل من أهل الإجتهاد الحريص على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بالمغفرة من مثل هذا) ([112])

وعلى نفس الأمر استدل ابن حزم بمثال آخر فقال :

(وأبين شيء في هذا قول الله تعالى : " **إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين** " المائدة **112-113**

فهؤلاء الحواريون الذين أثنى الله عز وجل عليهم قد قالوا بالجهل لعيســـى عليه الســـلام :هل يســـتطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من الســـــماء ! ؟ ولم يبطل بذلك إيمانهم وهذا ما لا مخلص منه وإنما كانوا يكفرون لو قالوا ذلك بعد قيام الحجة وتبيينهم لها) ([113])

فمما يجب على المســـلم مراعاته في تعامله مع غيره من المســـلمين أن لا يندفع بتكفيرهم وإنما يراعي اختلاف أحوالهم وتباين ظروفهم من حيث انتشار العلم الشرعي في بلدانهم أو قصوره عنها ، كما يراعي حال الأحكام الشرعية التي خالفها الناس من حيث ظهورها واختفاؤها ، فأن كان العلم الشـــرعي قليلا والبلد يســـوده الجهل كان الواجب الشـــرعي على أهل العلم تعليم هؤلاء وإقامة الحجة عليهم لا تضليلهم وإدانتهم .

وقد ذكر شيخ الإسلام في هذا الباب أصلا عظيما وقاعدة جليلة يجب أن تكون نصب عين كل مسلم وهي " **أن من ثبت إسلامه بيقين ، لم يزل عنه ذلك بالشك ، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة** " ([114])

إن خدمة الدين ونشر تعاليم الإسلام إنما تحتاج الى دقة النظر وكثير من الحذر والحيطة حتى لا يسيء الإنسان الى اهل ملته من حيث يظن أنه يحسن ، وأول مظاهر هذه الحيطة أن يحذر المسلم من الإساءة الى حرمة المسلمين دون ضابط من شرع أو دين وقد كان علماء المسلمينيدركون هذا الأمر جيدا ، وعن مثل هذا يقول الإمام العارف الشعراني :

---

[112] مجموع الفتاوى (3/230-231)

[113] الفصل في الملل و الأهواء و النحل (3/253)

[114] مجموع الفتاوى (12/466)

(وقد رأيت سؤالا بخط الشيخ شهاب الدين الأذرعي قدمه الى شيخ الإسلام الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله ، وصورته : ما يقول سيدنا ومولانا شيخ افسلام في تكفيرأهل الأهواء والبدع ؟ فكتب إليه : إعلم يا أخي وفقني الله وإياك أن الإقدام على تكفير المؤمنين عسر جدا وكل من في قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا اله إلا الله محمد رسول الله ، فإن التكفير أمر هائل عظيم الخطر ، ومن كفر إنسانا فكأنه أخبر عن ذلك الإنسان بأن عاقبته في الآخرة العقوبةالدائمة أبد الآبدين وأنه في الدنيا مباح الدم والمال ، لا يمكن من نكاح مسلمة ولا تجري عليه أحكام الإسلام في حياته ولا بعد مماته ، والخطأ غي قتل مسلم أرجح في الإثم من ترك قتل ألف كافر) ([115])

سؤال : ما الذي يستفاد من حديث مسلم في نهيه صلى الله عليه وسلم عن قول الرجل : هلك الناس ؟

إن رسول الله صلى الله عيه وسلم يعلم المسلمين منهج التعامل الذي يحفظ لهم أخوتهم ويصون حرمتهم ، يعلمهم إحسان الظن بالآخرين وترك اسلوب الإدانة لهم أو الإستعلاء عليهم أو تتبع عوراتهم ونشر عثراتهم ، وظاهر الحديث فيه النهي الشديد عن مثل هذا الأسلوب في التعامل مع المسلمين .

قال الإمام النووي : (واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه) ([116])

فالمطلوب من المسلم أن تكون مراقبته ومتابعته لنفسه أولا ، إذ عليه اتهام نفسه وعدم التسامح معها ودوام استشعار تقصيرها في جنب الله تعالى وفي حقوق عباده ، فتزكية النفس ليست من صفات المؤمنين الصادقين ، وعن ذلك ينهانا الله تعالى فيقول : (**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**) النجم **32** ، وقال أيضا وهو يذم اليهود الذين يزكون انفسهم بإدعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه : (**ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا**) النساء **49**

وقال الإمام الزرقاني :(إذا قال الرجل " هلك الناس " إعجابا بنفسه وتيها بعلمه وعبادته وإحتقارا للناس فهو أهلكهم أي اشدهم هلاكا لما يلحقه من الإثم في ذلك القول ، أو أقربهم الى الهلاك لذمه الناس وذكر عيوبهم) ([117])

---

[115] اليواقيت و الجواهر (113/2)

[116] شرح النووي على صحيح مسلم (175/16)

[117] شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (400/4)

فمن أعظم شعب الإيمان حسن الظن بالله وحسن الظن بالمسلمين ، وفي مقابلهما : سوء الظن بالله وسوء الظن بالمسلمين ، إذ الأصل هو حمل المسلم على الصلاح وأن لا يعامل بالإدانة ويحكم عليه بالهلاك .

إن مخاطبة الناس من برج والنظر إليهم من علو لم تكن من صفات الرسول صلى الله عيه وسلم ولا من صفات صحابته وتابعيهم رضي الله عنهم ، فقد كان أبغض الناس إليهم الباغين للبرآء العثرات الذين لا هم لهم إلا كشف عورات المسلمين والتشنيع عليهم بأقسى الأحكام .

جاء في " عون المعبود " –شرحا للحديث – : (أنّ الغالين الذين يؤيسون الناس من رحمة الله يقولون : هلك الناس : أي استوجبوا النار بسوء أعمالهم ، فإذا قال الرجل ذلك فهو الذي أوجبه لهم لا الله تعالى ، ولا عبرة بإيجابه لهم ، فإن فضل الله واسع ورحمته تعمهم ، أو هو الذي لما قال لهم ذلك وآيسهم ، حملهم على ترك الطاعة والإنهماك في المعاصي ، فهو الذي أوقعهم في الهلاك) ([118])

إن المسلم الذي يرى في نفسه الصلاح والإستقامة والإجتهاد في الطاعة ينبغي ان لا يزيده ذلك إلا تواضعا لله تعالى ورأفة على عباده الذين حادوا عن سواء السبيل ، ولعل هذا هو الإستثناء الوحيد الذي يبيح للإنسان أن يقول (هلك الناس) ، ويجعل نفسه على رأس هؤلاء الناس ، نظرا لشدة التقصير وقلة الزاد .

قال الإمام النووي : (قالوا – أي العلماء – : فأما من قال ذلك تحزنا لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في امر الدين فلا بأس عليه) ([119])

فيكون هذا الإستثناء بالترخيص في قول (هلك الناس) ليس إلا اتهاما للنفس ورأفة بالخلق ، وهو ما يقابل الحالة الأخرى النهي عنها ، والتي ليست إلا تزكية للنفس وإدانة وإتهاما للخلق .

بل إن من المراتب العالية في الإيمان والدين مرتبة الإنبساط مع الخلق وذلك بأن يسعهم المؤمن بقلبه وحسن خلقه ، فقد جعل الإمام ابن القيم رحمه الله " منزلة الإنبساط " من منازل " إياك نعبد وإياك نستعين " وفسر ذلك بقوله (باحتمال ما يبدو منهم من سوء العشرة ، فخذ منهم ما أمر الله نبيّه أن يأخذه من أخلاق الناس وهو العفو) ([120])

---

[118] عون المعبود (328/13)

[119] شرح النووي على صحيح مسلم (176-175/16)

[120] – مدارج السالكين (356/2)

وكذلك كان منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعامله مع المخطئين والمذنبين فكان إذا أراد الإنكار على أشخاص بدر منهم الخطأ والذنب لا يواجههم بالإدانة والوعيد ، وإنما يعتمد أسلوب اللطف مع التعميم كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل ما بال فلان يقول ، ولكن يقول : ما بال أقوام يقولون كذا وكذا)

فقد كان يكره إشاعة عيوب المخطئين ، لأن هدفه لم يكن سوى تطهير النفوس من المفاسد التي وقعت فيها .

ومن مواقفه صلى الله عليه وسلم العملية التي تبتعد مطلقا عن أسلوب الإدانة والوعيد وتفيض حبا وحلما موقفه من ذلك الشاب الذي جاء يستأذنه في الزّنى !؟

فقد جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إئذن لي في الزنى ! فأقبل القوم عليه وجرّوه قالوا : مه مه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (**ادنه**) فدنا منه قريبا ، قال : فجلس ، قال : (**أتحبه لأمك ؟**) قال :لا والله جعلني الله فداك

قال : (**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**)، قال : (**أفتحبه لإبنتك ؟**) قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : (**ولا الناس يحبونه لبناتهم**) قال : (**أفتحبه لأختك ؟**) قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : (**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**) قال : (**أفتحبه لعمتك ؟**) قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : (**ولا الناس يحبونه لعماتهم**) قال: (**أفتحبه لخالتك ؟**) قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : (**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**) قال : فوضع يده عليه وقال : (**اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحصن فرجه**) فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت الى شيء ([121])

بهذا الأسلوب تحفظ حرمة المسلمين وتوجه الأنفس الى الخير لا بأسلوب الإدانة والحكم بالهلاك الذي يبعث على الإحباط والنفور .

ومن مزالق هذا الأسلوب في التعامل – أي اسلوب الإدانة والحكم بالهلاك – انه يوصل أصحابه الى حد الشعور بأنهم مفوضون عن الله تعالى في محاكمة عباده ! وهذا الذي يرفضه ويبطله الإسلام بكل شدة وحزم ، فليس لأي شخص أن يجعل لنفسه موقع المحاكم لعباد الله مهما علا شأنه في العلم وزاد إيمانه بالتقوى ليس له أن يجعل لنفسه مركزا فوقيا يستعلي به على الناس ومنه يحاكمهم ويحدد مصائرهم إن ذلك ليس لأحد إلا لله تعالى ، وفي ذلك يأتي الرفض القرآني لهذه المواقع

---

[121] مسند أحمد (256/5) (22265).

الإستعلائية ، قال تعالى : (**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**) آل عمران **79**

إن الإستعلاء على عوام المسلمين وسرعة رميهم بالضلال ووعيدهم بالهلاك دون تقديم الواجب الكامل والعمل التام لتعريفهم الحق وترغيبه إليه إن هو غلا تسرع في الإدانة وحكم مسبق على أناس لا يعلم خاتمتهم إلا الله تعالى .

قال ابو الدرداء رضي الله عنه : (إذا تغير أخوك وحال عمّا كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يعوجّ مرة ويستقيم أخرى) ([122])

وقال ابراهيم النخعي : (لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه ، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا) ([123])

وهكذا يدفع هذا الأسلوب الى سوء الظن وإتهام الآخرين لأدنى سبب ، فلا يلتمس لهم المعاذير بل يفشي العيوب ويضخم الأخطاء حتى يجعل من الخطأ خطيئة ومن الخطيئة كفرا !!

وقد يقول قائل إن الحكم بهلاك الناس إنما هو نتيجة لما يُرى منهم من انحراف وفشو للمعاصي وتقصير في طاعة الله !

و**الجواب** : أن الحزن في التقصير في طاعة الله والخوف على الناس من عواقب الإنحراف أمر يدل على الإخلاص لله تعالى والحب لدينه والغيرة على شريعته كما يدل على حب الخير للناس والرحمة لهم وهذا يستوجب مضاعفة الجهد وتقوية العزيمة على اتشال هؤلاء الغرقى من وحل المعاصي وإيصالهم الى شاطئ الطهارة والعبادة والطاعة ، على ان لا يوصلنا الخوف على دين الله تعالى الى حد إدانة كل مخطئ واتهام كل مخالف فنكون كمن يريد تغيير خطأ بخطأ آخر .

يقول ابن القيم : (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : حد الخوف ما حجزك عن معاصي الله ، فإذا زاد على ذلك فهو غير محتاج اليه) ([124])

ويعلق ابن القيم على كلام شيخه بقوله :(وهذا الخوف الموقع في الإياس إساءة ادب على رحمة الله تعالى التي سبقت غضبه وجهل بها) ([125])

---

[122] إحياء علوم الدين (181/2).

[123] المصدر نفسه (181/2)

[124] مدارج السالكين (394/2)

[125] المصدر نفسه (394/2)

كما أن الخوف على دين الله تعالى والحزن على ما يظهر على سلوك الناس من انحراف لا يجب أن يوقعنا في خطأ الحكم عليهم كلهم ووضعهم جميعا في دائرة إدانة واحدة دون تمييز بين الضعيف والقوي والمبتدئ والمنتهي ، ولا تمييز بين مراتب الأخطاء التي وقعوا فيها وقد فرق الله تعالى بين مراتب الناس من حيث طاعاتهم أو أخطاؤهم ، فقال تعالى : (**ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**) فاطر **32**

وقد فسر العلماء الظالم لنفسه بأنه المقصر في بعض الواجبات والمرتكب لبعض المحرمات ([126]) ومع ذلك جعله الله تعالى داخلا ضمن الأمة المصطفاة التي أورثها الله تعالى الكتاب ، وماحكم عليهم بالخروج من الملة أو توعدهم بالويل والهلاك .

ومما يجدر التبيه إليه أن الخوف على دين الله تعالى والسعي الى إرجاع المخطئين الى صراط الله المستقيم لا يكون بتحويل الناس الى ملائكة منزهين أو دفعهم كلهم الى مصاف الأبرار والمقربين ، وإلا تسرعنا في رميهم بالهلاك والخروج عن الدين ، لأن ذلك إنكار لسنة من سنن الله تعالى في خلقه وهو معاملتهم على أنهم آدميون وبشر يصدر منهم الخطأ والغفلة والتقصير ، لأن القرآن الكريم لم يجعل من التقصير في الطاعة أو من الإلمام ببعض الذنوب موجبا للإدانة والوعيد والهلاك ولا عدّه مسقطا لإحسان المحسنين .

يقول الله تعالى :(**ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة**) النجم **31-32**

وقد فسر ابن كثير معنى المحسنين وبين حقيقتهم بأنهم هم الذين (لا يتعاطون المحرمات والكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر ، فإنه يغفر لهم ويستر عليهم كما قال تعالى في آية أخرى (**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما**) النساء **31** وقال ها هنا (**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم**) وهذا استثناء منقطع لأن اللمم ومحقرات الأعمال ([127]) .

فإن المسلم الذي لم تصبح المعاصي والذنوب خطا ثابتا في حياته يجد في دين الله تعالى المتسع ، لأن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء .

---

[126] أنظر : تفسير ابن كثير (5/49-50)

[127] المصدر نفسه (6/29)

إننا قلما ننظر الى الداخل ، لأن الإنشغال بعيوب الناس والتشهير بها والإسقاط عليها لم يدع لنا فرصة التأمل في بنائنا الداخلي ، والأثر يقول (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس) ([128]) .

سؤال : ما الذي نفهمه من دفاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حرمة مالك بن الدخشن ؟

و الجواب عن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل أن يذكر أصحابه رضوان الله عليهم واحدا من المسلمين بسوء لشبهة عرضت عليهم فيه ورد بحزم من اتهم ابن الدخشن بالنفاق وعدم حب الله ورسوله فقال له : (**لا تقل ذلك**) ، فكانت شهادة الرجل بالتوحيد لله تعالى والإقرار بنبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كافية لأن تجعل له حرمة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذود بها عنه بين أصحابه .

يقول ابن حجر رحمه الله : (من فوائد هذا الحديث أن العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى ينجي صاحبه إذا قبله الله تعالى ، وأن من نسب من يظهر الإسلام الى النفاق ونحوه بقرينة تقوم عنده لا يكفر بذلك ولا يفسق بل يعذر بالتأويل) ([129]) .

فكان عليه الصلاة والسلام يقدم لأصحابه الصورة الطيبة للمعاملة المثلى التي تحفظ حرمة المسلمين وذلك بحسن الخلق الذي عده رسول الله من دلائل كمال الإيمان كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا) ([130]) .

وقد عرف أهل العلم حسن الخلق بأنه (كظم الغيظ لله وو إظهار الطلاقة والبشر إلا للمبتدع والفاجر والعفو عن الزالين إلا تأديبا وإقامة للحد ، وكف الأذى عن كل مسلم ومعاهد) ([131]) .

وما أُثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام أنه اعتمد أسلوب الفظاظة أو الفحش أو اللعنةلأنه جاء رحمة للعالمين تنفي كل إذية عن الناس أجمعين .

---

[128] أنظر : رسالة الألفة بين المسلمين للشيخ عبد الفتاح أبي غدة (8)

[129] فتح الباري (688/1)

[130] سنن أبي داود – كتاب : السنة – باب : الدليل على زيادة الإيمان و نقصه (220/4) (4682).

[131] جامع العلوم و الحكم لإبن رجب الحنبلي (172-173).

روى أنس رضي الله عنه قال :(لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا لعانا ولا سبابا) ([132]) ، وقال الإمام النووي مؤكدا : (لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا ولا لعانا ولا منتقما لنفسه) ([133]) وبذلك أوصى القرآن الكريم فقال (**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**) آل عمران **159**

فإذا كان الله تعالى يوصي رسوله صلى الله عليه وسلم بالرفق واللين بالمؤمنين لأن الخشونة والقسوة تؤذي قلوبهم فينفضوا من حوله ، فكيف القول معنا !؟

قال الإمام أحمد : (الناس يحتاجون الى مداراة ورفق في الأمر بالمعروف بلا غلظة ، إلا رجلا مباينا معلنا بالفسق والرّدى ، فيجب عليه نهيه وإعلامه لأنه يقال ليس لفاسق حرمة فهذا لا حرمة له ([134]) .

فخير الناس من ألهمه الله تعالى خلقا حسنا يحفظ به حرمة إخوانه ، ويجنبه الفظاظة وإيذاء الخلق .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير وو من حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير) ([135]) وأي عقوبة أشد وأقسى من أن يحرم الإنسان الخير كل الخير !؟

وشر الناس من يعمد الى إيذاء عباد الله ولو كان متسترا بستار الدين ، لأن دين الله تعالى لم يرخص لأحد أن يؤذي الناس أو يجرحهم أو يسيء الى حرمتهم .

فقد روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه) ([136]) فكيف يكون الخير في من يفر الناس منه اتقاء إذيته وضرره ؟ .

---

[132] صحيح البخاري – كتاب : الأدب – باب : ما ينهى من السباب و اللعن (569/10) (6046).

[133] صحيح مسلم بشرح النووي (152/16)

[134] الآداب الشرعية لإبن مفلح المقدسي (1149/1).

[135] سنن الترمذي – كتاب : البر و الصلة – باب : ما جاء في الرفق (**367/4**) (**2013**)

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

[136] صحيح البخاري – كتاب : الأدب – باب : ما يجوز من اغتياب أهل الفساد و الريب (578/10)

أين يلجأ المسلم وهو يرى حرمته نهبا (لإخوانه!!) في العقيدة والدين ؟ وبمن يحتمي وكلمات الطعن والتجريح توجه اليه من (مسلمين !!) مثله ؟ .

إن إيذاء مسلم عند الله تعالى عظيم ولو كان بكلمة واحدة لقوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) ([137]) .

قال الإمام النووي : (معناه : لا يتدبرها ويفكر في قبحها ولا يخاف ما يترتب عليها وهذا كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك) ([138]) .

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله : (سب الناس وشتمهم مشافهة هو جناية على القلوب ، وكذلك غيبتهم وذكرهم بالقبيح .. وهو كل كلام لا يُحسن أن يقال له في وجهه ، فإذا قاله في غيبة منه فقد إغتابه وكفارته أن يذكر له ذلك ويستحله ، فإن كانوا جماعة فواحدا واحدا ، ومن مات منهم قبل ذلك فتدارك بتكثير الحسنات) ([139]).

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على صون حرمة أفراد أمته رحيما بها كالأم الرؤوم على أولادها ، لا يقبل من مسلم – كائنا ما كان قربه أو موقعه – أن يؤذي اخاه ولو بكلمة واحدة .

روى انس رضي الله عنه قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : بنت يهودي ! فبكت فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي فقال: (**ما يبكيك ؟**) فقالت : قالت لي حفصة إنني بنت يهودي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنك لابنة نبي وإن عمك لنبي وإنك لتحت نبي ، ففيم تفخر عليك ؟**) ثم قال: (**إتق الله يا حفصة**)([140]) .

---

[137] صحيح مسلم – كتاب : الزهد و الرقائق – باب : التكلم بكلمة يهوي بها في النار (2290/4).

[138] صحيح مسلم بشرح النووي (177/18).

[139] – الغنية (**580/2**)

[140] سنن الترمذي – كتاب : المناقب – باب : فضل أزواج النبي صلى الله عليه و سلم (**666/5**) (**3894**) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

بهذا الأسلوب البديع كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الحفاظ على حرمة المسلمين ويزجر إخوانه المخطئين في حقهم من أن يلحقوا أي ضرر بإخوانهم واعتبر من يفعل ذلك بعيدا عن رحمة الله فقال صلى الله عليه وسلم – عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه – : (ملعون من ضارّ مؤمنا أو مكر به) ([141]) .

ومعنى ذلك أن (من أدخل على مسلم مضرّة في ماله أو نفسه أوعرضه بغير حق ضارّه الله ، أي جازاه من نفس فعله وأدخل عليه المضرّة) ([142]) .

ومن دلائل الانحراف عن منهج الله تعالى وعدم الرسوخ في دينه والإحاطة بآفاق شريعته ، أن يبلغ المساس بحرمة المسلمين حد استباحة الدماء والأرواح !

وتحذيرا من هذا الأمر الكارثي على الأمة والدين نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون حامل السلاح لمقاتلة إخوانه من أمته وأتباعه .

قال النووي: (من حمل السلاح على المسلمين بغير حق ولا تأويل ولم يستحله فهو عاص ، ولا يكفر بذلك ، فإن استحله كفر) ([143]) .

و بمثل ذلك يقول ابن حجر : (ومعنى الحديث : حمل السلاح على المسلمين وقتالهم بغير حق لما في ذلك من تخويفهم وإدخال الرعب عليهم ، وكأنه كنّى بالحمل على المقاتلة أو القتل ... وعلى كل حال ففيه دلالة تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه) ([144]) .

---

141 سنن الترمذي – كتاب :البر و الصلة – باب: ما جاء في الخيانة و الفحش (**293/4**) (**1941**) .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب

142 سبل السلام (1591/4)

143 صحيح مسلم بشرح النووي (108/2).

144 فتح الباري (29/13)

وقال الإمام الصنعاني :(أي ليس على طريقتنا وهدينا ، فإن طريقته صلى الله عليه وسلم نصر المسلم والقتال دونه لا ترويعه وإخافته وقتاله ، وهذا في غير المستحل، فإن استحل القتال للمسلم بغير حق فإنه يُكفّر باستحلالة المحرم القطعي) ([145])

فكيف تسقط حرمة المسلم الى حد يُستباح فيه دمه والقرآن الكريم يسد كل أبواب الترخيص في ذلك ، إلا ما كان خطأ لا قصد للمسلم فيه لقوله نعالى :(**وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ**) النساء **92**

قال ابن كثير : (ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه) ([146]) ، حتى لقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إيذاء المسلمين وسفك دمائهم من علامات الردة والكفر بدين الله ، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم :(لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) ([147]) .

فعلى المسلم أن يدرك جيدا أن الدفاع عن حرمة الدين لا تكون بانتهاك حرمة المسلمين وإيذائهم واستباحة دمهم لأن من صميم الدين حماية المسلمين والذود عنهم .

كما عليه أن يدرك أن أعظم ركيزة بنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع الإسلامي هو " الإنسان المسلم " الذي دعا الى احترامه ونهى عن إيذائه ولو بالإشارة.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار) ([148]) .

قال ابن حجر :(فيقع في حفرة من النار : هو كناية عن وقوعه في المعصية التي تفضي به الى دخول النار) ([149]) .

إن دين الله واسع وشريعته فسيحة فلماذا يضيق المسلم على نفسه بحرمة مسلم ينتهكها وقطرة دم يسفكها ؟ .

---

[145] سبل السلام (1228/3)

[146] تفسير ابن كثير (133/2)

[147] صحيح البخاري – كتاب : الفتن – باب: قوله صلى الله عليه و سلم : (لا ترجعوا بعدي كفارا **000**) (**32/13**) (**7077**)

[148] صحيح البخاري – كتاب : الفتن – باب: من حمل علينا السلاح فليس منا (29/13) (7072)

[149] فتح الباري (30/13)

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما) ([150]) .

قال ابن العربي : (الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة ، حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره ، والفسحة في الذنب قبول الغفران بالتوبة ، حتى إذا جاء القتل ارتفع القبول) ([151]) .

وقد عبر سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن هذا الإنحراف السيء " **بالورطة** " في الدين فقال : (إن من ورطات الأمور التي لا مخرج منها لمن أوقع نفسه فيها : سفك الدم الحرام بغير حلّه) ([152])

ذلك أن كل الآثام يمكن التوبة منها إلا إزهاق الروح بغير حق ، فكيف النجاة منها وهي من حقوق العباد العسيرة ؟ !

لقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يتمادى المس بحرمة المسلمين الى حد سفك دمائهم فشدد في النهي عن ذلك مادام الإسلام ظاهرا على الإنسان ولو في آخر لحظة من عمره أو كان محتميا بأبسط شعائر الإسلام .

روى المقداد بن عمرو قال : قلت يارسول الله إن لقيت كافرا فاقتتلنا فضرب يدي بالسّيف فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال : أسلمت لله ! أأقتله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(**لا تقتله**) قال يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أأقتله ؟ قال : (**لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال**) ([153]) .

قال ابن حجر : (ونقل ابن بطال عن المهلب معناه فقال : أي أنك بقصدك لقتله عمدا آثم كما كان هو بقصده لقتلك آثما ، فأنتما في حالة واحدة من العصيان . وقيل : إن قتلته مستحلا لقتله فأنت مثله في الكفر) ([154]) .

إنه لا شيء يشين علاقة المسلمين بعضهم ببعض سوى العنف والغلظة التي تفسد ذات بينهم ، مع أن القرآن الكريم لم يذكر الغلظة والشدة إلا في موضعين :

---

[150] صحيح البخاري – كتاب : الديات – باب : قوله تعالى : (و من يقتل مؤمنا متعمدا) (229/12) (6862)

[151] فتح الباري (231/12)

[152] صحيح البخاري – كتاب : الديات – باب : قوله تعالى : (و من يقتل مؤمنا متعمدا) (**229/12**) (**6863**)

[153] صحيح البخاري – كتاب : الديات – باب : قوله تعالى : (و من يقتل مؤمنا متعمدا) (230/12) (6865).

[154] فتح الباري (233/12)

الأول : في قلب المعركة ومواجهة الأعداء حيث توجب العسكرية الناجحة الصبلابة عند اللقاء وعزل مشاعر اللين حتى تضع الحرب أوزارها ، وفي هذا يقول الله تعالى : (**يا أيّها الذين ءامنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة**) ([155]) .

الثاني : في تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها ، حيث لا مجال لعواطف الرحمة في إقامة حدود الله تعالى ، فقال : (**ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**) ([156])

أما في علاقة المسلمين مع بعضهم فلا مكان للعنف ولا للإيذاء واستباحة الدماء.

قال ابن العربي :(ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك ، فكيف بقتل الآدمي ؟

فكيف بالمسلم ؟ فكيف بالتقي الصالح ؟) ([157]) .

---

[155] سورة التوبة – الآية (123)

[156] سورة النور – الآية (2).

[157] فتح الباري (12/ 232)